روايات الهلال

ألف شبح وشبح

الكسندر دوماس

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٣٢٥ – يناير ١٩٧٦ – محرم ١٣٩٦
No. 325 — January 1976

رئيس مجلس الإدارة : فكرى أباظة ● نائب رئيس مجلس الإدارة : صالح جودت

رئيس التحرير : صالح جودت
المشرف الفنى : جمال قطب
سكرتير التحرير : موسى عبد

بيانات ادارية

ثمن العدد : فى جمهورية مصر العربية ١٢٠ مليما . عن الكميات المرسلة بالطائرة – فى سوريا ولبنان ١٥٠ قرشا ، فى الاردن ١٥٠ فلسا ، فى العراق ٢٠٠ فلس – فى الكويت ٢٢٥ فلسا – فى السعودية ٢٫٥ ريال سعودي

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٢٠ قرشا صاغا فى سائر انحاء العالم ٦ دولارات أو ٢٫٥ جنيه والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بشيك مصرفى . والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى – وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بالقاهرة
تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »





روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

ألف شبح وشبح

بقلم

الكسندر دوماس

ترجمة

أحمد رضا

دار الهلال

شارع ديانا "ببلدة فونتناى أوروز"



(١) شارع « ديانا » ببلدة « فونتناى أوروز »

فى اول سبتمبر عام ١٨٢١ دعانى صديق قديم ، يعمل مديرا لمكتب الخاصة الملكية الى افتتاح موسم الصيد مع ابنه فى « فونتناى اوروز » ؟ وكنت أعشق الصيد فى ذلك الأوان . ولما كنت صيادا بارعا ، كان اختيار المكان المناسب عنده لافتتاح موسم الصيد فى كل عام من الامور التى اهتم لها كثيرا . وقد اعتدنا النزول فى دار احد المزارعين ، وهو صديق لصهرى ، كنت قد تعلمت عنده فنون الصيد . بداتها بقتل أرنب برى ، وتقع مزرعته بين غابات « كومبيين » و « فيليركوتيريه » على بعد نصف فرسخ (حوالي كيلومترين) من قرية « موزينفال » الجميلة ، وفرسخ واحد من خرائب « بييريفون » الرائعة . وتمتد مزارعه الشاسعة في سهل واسع تحيط به الغابات من جميع الجهات تقريبا ، يقطعها في حوالي منتصفها واد جميل ، تظهر عند أطرافه بين المراعي الخضراء والاشجار المتنوعة الألوان منازل متناثرة تكاد تختفي بين غصون الأشجار ، فلا يكشف عن وجودها سوى أعمدة الدخان الضارب الى الزرقة التى ترتفع راسيا صوب السماء ، تطوقها الجبال ، حتى تصل الى طبقات الهواء العليا فتميل مع الريح ، وتتسع حتى تبدو كأغالى أشجار النخيل .

كانت حيوانات الصيد ، فى هذا السهل وعلى جوانب هذا الوادي تمرح كأنها في ارض مشاع ، وكان منها فى سهول « براسوار » كل الأنواع ، من ماعز ، ووعل ، وديك برى ، على مدى الغابات ، وارانب فى السهول المرتفعة والمنحدرات ، والديك الرومي حول المزرعة .

وكان السيد « موكيه » ، صديقنا هذا ، على ثقة من وصولنا

عنــده . ومن ثم نمضي النهــار بطوله نصطاد ، ثم نعود الى باريس فى حوالى الســــاعة الثانية من اليوم التالى بعد أن نــكون قد قتلنا ـ ونحن اربعة أو خمسة من الصــائدين ـ مائة وخمســين رأســا من الصيــد ، وعبثا نحاول أن نحمل مضيفنا على قبــول واحد منها .

ولــكنى تخليت هـــــذا العام عن السيد موكيه ، ورضخت لالحاح زميلى الســابق بالمكتب ، بعد أن استهوتنى صــــورة ارسلها الى ابنــه ، وهو طالب ممتاز بمدرسة روما ، تمثل منظرا لسهل « فونتناى أوروز » بأعشــــابه الملأى بالأرانب ، والديك الرومى . ولم أكن من قبــــل قد ذهبت الى فونتناى أوروز ، وكنت اشــد النــاس جهلا بضواحى باريس ، فلم أعبر حدودها لأبعد من خمسة أو ستة فراسخ على الأكثر ، لذلك كان كل ما اصادفه فى طريقى يثير فضولى .

وبدأت رحلتى الى فونتناى فى الساعة السادسة مساء ، وكنت اطل برأسى كعادتى من نافذة العربة ، فعبرت حدود أنفير ، والى يسارى شــارع « مقبرة ايسوار » ، ودلفت العربة الى شــارع اورليان . ومن المعروف أن « ايسوار » هو اســم قاطع طريق مشهور فى عهــد جوليــان كان يسلب المسافرين القاصــدين الى لوتيس ، وفى اعتقــادي انه شنق أخيرا ودفن فى الموضع المسمى الآن باسمه على مسافة ما من مدخل « كاتاكومب » .

ويبــدو السهل المتسع فى بداية تل « بيتى مون روج » غريب المنظر . ففى وسط المروج المزروعة ، وحقول الجزر ، ومصاطب البنجر ، ترتفع مبان كالطوابى المربعة ، من حجارة بيض ، تشرف عليها عجلة مسننة شبيهة بهيكل الصواريخ النارية الخامدة ، على محيطها عارضتان خشبيتان يقف عليهما رجــل ، ويضغط عليهما بقدميه ، الواحدة بعد الاخرى . والقصد من هــذا العمل الشبيه بحركة السنجاب ، والذى يبـــدو به العامل وكأنه يتحرك حركة كبيرة دون أن يغير مكانه بالفعل ، هو لف حبل حول قب الدولاب « بطيخة العجلة » الذى يدور حول نفسه فيرفع الى سطح الارض قطعة من الحجر نحتت فى قاع المحجر ، يرفعهــا على مهل حتى

تحرك من الظلمــــات السفلى الى النور . ويتولى خطاف سحب الحجر حتى فوهة المحجر حيث تنتظره اسطوانات تنقله الى المكان المهيأ له ، ثم يعود الحبل فيهبط الى الاعماق ليلاقى حجرا آخر ، ويتيح دقيقة من الراحة لاكسيون (١) العصرى ، حتى يسمع صيحة تعلنه بان حجرا آخر ينتظر أن ينقل من موضعه الاصلى فى المحجر، ومن ثم تتكرر العملية الســابقة مرة بعد مرة . وهكذا دواليك . فاذا اقبل المساء يكون الرجـل قد تحرك عشرة فراسخ دون ان يبرح مكانه ، فلو انه ارتفع بالفعل درجة واحدة كلما وطأت قدمه احدى العارضتين الخشبيتين ، لبلغ القمر فى ثلاث وعشرين سنة .

وفى المســاء ، اى فى الســاعة التى اجتزت فيها السهل الذي يفصل « الجبل الاحمر الـكبير » (جران مون روج) عن « الجبل الاحمر الصغير » ، يتخذ المنظر الطبيعى مظهرا خياليا ساحرا . بفضل هــــذا العدد اللانهائى من العجلات الدوارة التى تبرز بوضوح شـديد على الافق الملتهب ، فما اشبهه بنقش من نقوش « جويا » حيث يبدو بالوانه المتفاوتة بين النصوع والدكنة بعض الرجال وهم ينزعون أسنان المشنوقين .

وفى حوالى السابعة تتوقف العجلات ، وينتهى النهار .

هذه الاحجار ، وهى مربعات ضخمة يبلغ طول كل حجر منهــا من خمسين الى ستين قدما وارتفاعه من ستة الى ثمانية أقدام ، هى مدينــة باريس المستقبلة ، يستخرجونها الآن من الارض . أما المحاجر التى تستخرج منها هــذه الاحجار فانها تتسع باطراد : تلك هى الـكاتاكومب (اى سراديب الموتى) التى خرجت منهــا باريس القديمة ، وتشكل ضــواحى المدينــة الـكائنة تحت الارض والتى تتسـع وتمتد . فاذا سار الأنسان فى سهل « المون روج » هــذا فانه يسير فوق مهاو . ومن وقت لآخر يصــادف الانسن تجويفا بالارض ، واديا صغيرا او تغضنا فى التربة ، فذلك محجر دعائمه واهنة ، قد تـكسر سقفه الجصى بعد ان تكون فيه شرخ نفذت منه الميـــاه حتى الـكهف ، فانهارت الارض .

---

(١) ملك اللابيث ، اواه جوبيتر فى الاوليمب ، ولكنه اساء الادب مع جينون زوجة جوبيتر فحكم عليه ان يشد الى عجلة مشتعلة تدور ويدور معها أبد الاباد — المترجم .

فاذا لم يكن الانسان على علم بهذه الحقيقة ، وكان يجهل ان هذه الطبقة الجميلة من التربة الخضراء التى تجذب الانظار لا تستقر على أثاث ثابت ، ووطأ بقدمه أحد هذه التشققات ، فانه لا يلبث أن يهوى ويختفي ، كما يختفي الناس في « مونتانفير » بين جدارين من الثلج .

وللقوم الذين يعيشون فى هذه الدهاليز السفلى طبائعهم وسماتهم التى تتمشى مع أسلوب معيشتهم . ولما كانوا يعيشون فى الظلمات ، كانت لهم غرائز حيوان الليل ؛ أى انهم شرسون صامتون ، وكثيرا ما يصل الى اسماعنا حوادث تقع بينهم : دعامة تسقط ، وحبل ينقطع ، ورجل ينسحق . ونحن الموجودين على سطح الارض ، نحسب مثل هذه الحوادث من صروف الايام ، ولكنها تعتبر ، على عمق ثلاثين قدما ، من قبيل الجرائم .

أما مظهر رجال المحاجر فانه بوجه عام قبيح مشئوم . ففى النهار ترف عيونهم ، وفى الهواء تبدو صماء أصواتهم ؛ وعلى رءوسهم شعور مرسلة ، متهدلة من الامام حتى الحاجبين ؛ ولهم لحى لا تصافحها الموسى الا فى صباح كل أحد . ويرتدون صدرة تكشف عن اكمام من تيل رمادى سميك ، وازارا من جلد قد ابيض لونه من كثرة احتكاكه بالحجر ، وسراويل من تيل ازرق . وعلى أحد الكتفين سترة مطوية طيتين ، تستقر عليها يد الفاس التى تنحت الحجر ستة أيام فى الاسبوع .

فاذا وقع بين الناس أى شغب ، لم يتورع هؤلاء الرجال الذين صورناهم آنفا عن الاشتراك فيه . وعندما يقال عند سور «انفير» :

« ها قد جاء رجال محاجر مون روج » يهز سكان الشوارع المجاورة رءوسهم ويغلقون أبواب بيوتهم .

هذا ما شهدته خلال ساعة الغسق التى تفصل الليل عن النهار فى شهر سبتمبر . فلما جن الليل ، ألقيت بنفسى داخل العربة ، ولم يكن أحد من ركابها قد رأى شيئا مما رأيته منذ هنيهة . وهكذا الحال فى كل الامور : الكثير ينظرون ، والقليل يبصرون .

وفى حوالى الثامنة والنصف وصلنا الى « فونتناى » ، وكان فى

انتظارنا عشاء فاخر . وبعد العشاء مضينا نتنزه في الحديقة .

و«سورنت» غابة من اشجار البرتقال ، اما فونتناى فانها باقة من الورود ، وفي كل منزل شجيرات ورد تمتد على طول الحائط يدعمها عند قاعدتها صندوق من الواح خشبية . وحين نبلغ شجيرة الورد ارتفاعا معينا تتفتح على شكل مروحة عظيمة : فيتمطر الهواء الذي يتخللها ، واذا هبت ريح تساقطت اوراق الورد كقطرات المطر ، مثلما كانت السماء تمطر وردا في عيد الآلهة ، حين كانت للآلهة اعياد .

ولو كانت الدنيا نهارا ، لشاهدنا منظرا متراميا ، ولدلتنا الانوار المتناثرة في الفضاء على قرى (دي سو ، وبانيو ، وشاتيون ، ومونروج) ، ويمتد في الوسط خط طويل شارب الى الحمرة ترتفع منه همهمة كفحيح الافاعي : تلك هي انفاس باريس . واجبرنا القوم على الرقاد ، كما يفعل الناس مع الاطفال . وطاب لنا تحت هذه السماء البديعة المطرزة بالنجوم ، وفي ملامسة هذا النسيم المعطر ، ان نترقب طلوع النهار .

وبدانا الصيد في الساعة الخامسة صباحا ، بارشاد نجل مضيفنا الذي بذل لنا الوعود الخلابة ، وراح يتباهي بكثرة حيوان الصيد في أراضيه ، الامر الذي يبشر بنتائج طيبة للغاية . وعند الظهيرة لمحنا ارنبا وديكا روميا ، ولكن الارنب افلت من زميلي الذي كان الي يميني ، كما أفلت الديك الذي كان الي يساري ، أما الديكة الثلاثة الاخرى فقد قتل منها اثنان ، في حين انني كنت في « برسوار » ارسل الى المزرعة في الظهر ثلاثة أو اربعة ارانب وخمسة عشر أو عشرين ديكا .

انني احب الصيد ، ولكنني اكره التجول ، وبخاصة في الحقول ، ومن ثم تظاهرت بالمضي لاستكشاف حقل برسيم يمتد الى يساري ، كنت على ثقة من انني لن اجد فيه شيئا أصيده ، وهكذا ابتعدت عن رفاقي وسرت وحدي .

وكان الشيء الذي اثار في نفسي الرغبة في الانسحاب منذ أكثر من ساعتين طريقا اجوف لمحته في هذا الحقل ، يحجبني عن انظار سائر الصيادين ، ويعود بي مباشرة الى فونتناى أوروز من طريق

« دى سو » ولم اخطىء التقدير . فعندما دقت ساعة كنيسة القرية الواحدة ، كنت قد وصلت الى أول منازل القرية ، سائرا بحداء حائط خلته يحيط بضيعة جميلة . ووصلت الى موضع يتقابل فيه شارع « ديانا » مع الشارع الكبير ، واذا بى ارى شخصا قادما من ناحية الكنيسة ، وجدته رجلا غريب المظهر ، فتوقفت بحكم الغريزة ، وأعددت طلقتى بندقيتى مستجيبا لشعور المحافظة على حياتى . ولكن الرجل مر بالقرب منى دون أن يرانى ، وكان ممتقع الوجه ، أشعث الشعر ، جاحظ العينين ، مشوش الملابس ، يداه مخضبتان بالدماء ، ونظرته جامدة ، يتقدم مندفعا كجسم ينحدر بسرعة من اعلى الجبل . ومع ذلك فان حشرجة انفاسه كانت تنبىء عن الرعب أكثر مما تدل على التعب . وعند تفرع الطريقين برح الشارع الكبير . واندفع فى شارع ديانا حيث باب الدار التى سرت بجانب حائطها سبع أو ثمانى دقائق وكان هذا الباب الذى استقر عليه نظرى فى اللحظة نفسها مدهونا باللون الاخضر ويعلوه الرقم « ٢ » . وامتدت يد الرجل نحو الناقوس وظلت ممتدة بعض الوقت قبل ان يتمكن من لمسه ، ثم هزه بعنف . ودار على نفسه وجلس على عتب الباب ، وبقى جالسا بلا حراك وذراعاه متدليتان وراسه مائل على صدره . عند هذا عدت أدراجى اذ ادركت ان الرجل لابد أن يكون قد اقترف أمرا فظيعا لم يعلم به احد . ومن خلف الرجل أقبل من جانبى الشارع بعض الاشخاص الذين وقع فى نفوسهم بسببه مثل ما وقع فى نفسى ، وجعلوا ينظرون اليه فى دهش شبيه بالدهش الذى تملكنى . وما أن رن الجرس بعنف حتى انفتح باب صغير الى جانب الباب الكبير ، وظهرت خلاله امراة بين الاربعين والخامسة والاربعين وقالت :

ــ آه ! هذا انت ياجاكمان ! ماذا تفعل هنا ؟

فأجاب الرجل بصوت اجش :

ــ اسيدى العمدة بالمنزل ؟

ــ نعم ..

ــ حسن ايتها الأم انطوان ، اخبريه اننى قتلت امراتى ، واتيت لاسلم نفسى .

عندئذ صـــــدرت من الأم انطوان صيحة رددتها صيحات دهش انتزعها الرعب من حنـــاجر أولئك الذين كانوا قريبين وسمعوا الاعتراف الرهيب . اما انا فقد خطوت خطوة الى الوراء حتى جذع شجرة زيزفون استندت اليها ، وبقى كل الاشخاص الذين سمعوا الصوت بلا حراك .

أما القاتل فانه انحدر من المقعد الحجرى الى الارض كأنه قد فقد قواه بعد أن نطق بكلماته المشئومة .

وفى هـذه الأثناء اختفت الأم انطوان تاركة الباب الصـــغير مفتوحا ؟ وكان واضحا انها ذهبت تبلغ سيدها الرسالة التى حملها اياها جاكمان . وبعد خمس دقائق ظهر الشخص المطلوب على عتبة الباب يتبعه شخصان آخران .

وما زلت اذكر منظر الشارع .

انحدر جاكمان الى الارض كما قلت ، ووقف الى جواره العمدة ، عمدة « فونتناى أوروز » الذى استقدمته الأم انطوان ، مطلا عليه بقامته المديدة . وعند فتحة الباب تدافع الشخصان اللذان سأتحدث عنهما طويلا بعد قليل . وكنت مستندا الى جذع شجرة زيزفون فى الشارع الكبير ، فأرسلت نظراتى الى شارع ديانا . وكان الى يسارى جماعة مكونة من رجل وامرأة وطفل ؛ والطفل يبكى حتى تضمه أمه بين ذراعيها ، والى الخلف خباز يطل برأسه من نافذة بالدور الاول ويخاطب صبيه فى الطابق السفلى ، يسأله عما اذا كان الشـــخص الذى مر راكضـــا منـذ برهـــة هو بعينـه « جاكمان » عامل المحاجر . وظهر أخيرا حداد على باب دكانه ؛ جسمه من الامام مظلم ، ومن الخلف مضاء بنور الفرن الذى كان الصبى يواصل تشغيل منفاخه .

هذا ما كان من أمر الشارع الكبير .

أما شـــارع ديانا فانه كان مقفرا فيما عدا الحشد الرئيسى الذى وصفته آنفا . وفى طرف الشارع ظهر شرطيان عائدان من دوريتهما فى السهل حيث كانا يراجعان رخص حمل السلاح ، وجعلا يقتربان معا بخطوة هادئة منتظمة ، وهما خاليا البال من المهمة التى كانت فى انتظارهما .

ودقت الساعة الواحدة والربع .

زقاق الشرطة



(٢) زقاق الشرطة

اختلطت آخر ذبذبة لرنين الجرس بصوت العمدة وهو يوجه اول كلامه الى جاكمان :

ــ جاكمان ، ارجو ان تكون الام انطوان قد جنت ، فانها أتت كطلبك تخبرني ان زوجتك قد ماتت ، وانك انت الذي قتلتها !

ــ هــذه هي الحقيقة الخالصة ياسيدي العمدة ، ولابد من اقتيادي الى السجن ومحاكمتي بسرعة .

وحاول أن ينهض وهو يتكلم ، متكئا بكوعه على النتوء الحجري ، ولكنه سقط ثانية كما لو كانت عظام ساقيه مهشمة . فقال العمدة :

ــ هذا غير معقول ! انت مجنون .. !

ــ انظر الى يدي ..

ورفع يديه المخضبتين بالدماء باصابعهما المتقلصة ، وكأنهما مخلبان . وكانت يده اليسرى في الواقع حمراء الى المعصم ، وكذا اليمنى حتى الكوع . وفضلا عن ذلك كانت شبكة من الدم الحار تسيل على طول الابهام ، ناتجة بلا ريب من عضة الضحية وهي تقاوم القاتل . وفي هذه الاثناء اقترب الشرطيان ثم توقفا على بعدعشر خطوات من الشخصية الرئيسية لهذا المشهد ، ونظرا اليه من فوق جواديهما ، فأشار اليهما العمدة فنزلا والقيا باعنة الجوادين الى غلام على راسه قبعة الشرطة ، واقتربا من جاكمان ورفعاه من تحت الذراعين ، فتركهما جاكمان يفعلان ما يريدان دون أن يبدي أية مقاومة ، وقد وهنت قواه ، كمن سيطرت عليه فكرة واحدة . وفي الوقت نفسه وصل رئيس الشرطة والطبيب ، وكانا قد أخطرا للتو بما حدث ..

فقال العمده :
ــ اه ! تعال ياسيد روبير ، تعال ياسيد كوزان .
وكان السيد روبير هو الطبيب ، والسيد كوزان رئيس الشرطة.
ــ تعاليا ، كنت على وشك أن أستدعيكما .
فاستفسر الطبيب قائلا :
ــ حسن ! ماذا حدث ؟ جريمة قتل عادية على ما يقال ؟
ولم يجب جاكمان بشيء ..
فاسترسل الطبيب قائلا :
ــ قل لنا أيها الأب جاكمان ، أصحيح انك أنت الذى قتل امراته؟
ولم ينبس جاكمان ببنت شفة ..
فقال العمدة : لقد اتهم نفسه بذلك على الاقل منذ برهة. ومع ذلك أتخشم ان يكون قد قال ما قال في نوبة هذيان والا يكون في الأمر جريمة حقيقية ..
ــ رئيس الشرطة : جاكمان .. أجب ! أحقا قتلت امراتك ؟
ــ نفس السكون ..
ــ الطبيب روبير : سوف نرى على اى حال . الا يقطن زقاق الشرطة ؟
ــ الشرطيان : بلى .
فقال الطبيب مخاطبا العمدة : حسن ، ياسيد ليدرو ، هيا بنا الى زقاق الشرطة .
فصاح جاكمان : لن أذهب الى هناك ! لن اذهب الى هناك !
وانتزع نفسه بقوة من أيدى الشرطيين ، ولو شــاء لاستطاع أن يفر ، فيغدو على بعد مائة خطوة قبل أن يفكر أحد في اللحاق به.
وسأله العمدة : ولــكن لم لا تريد الذهاب ؟
ــ لا حاجة بى الى الذهاب ، ما دمت قد اعترفت بكل شيء . قلت لــكم اني قتلتها ، قتلتها بالسيف الــكبير ذى المقبضين الذى أخذته في العام الماضي من متحف المدفعية . خذونى الى السجن !
فتبادل الطبيب والسيد ليدرو النظرات . وقال رئيس الشرطة وهو ما زال يأمل ، مع السيد ليدرو ، أن يكون جاكمان تحت تأثير اضطراب عقلى طارىء وقتى : يا صديقى ، لابد من المواجهة

العاجلة ، ومن وجودك هناك لارشاد العدالة .

ــ ما حاجة العدالة الى الارشاد لا ســـوف تجدون الجثة في القبو ، وبالقرب منها ، الراس في ســـلة من الجبس . أما أنا فخذوني الى السجن .

رئيس الشرطة : يجب أن تحضر .

فصاح جاكمان وقد استبد به رعب شديد : آه يا الهى ، آه يا الهى ! لو كنت اعلم ..

رئيس الشرطة : حسن ، ماذا كنت تصنع ؟

جاكمان : نعم ، كنت اقتل نفسي .

فهز السيد ليدرو راسه ، ونظر الى رئيس الشرطة وكانه يقول له : « هناك شيء هام » . ثم عاد يخاطب القاتل :

ــ هيا يا صديقي ، اشرح لي ذلك ، اشرح لي أنا ..

ــ نعم لك انت ياسيد ليدرو ، ساشرح كل ما تطلب . اسالنى اجب .

ــ كيف لا تجد في نفسك الشجاعة لمواجهة ضحيتك مرة ثانية ، بعد ان اجترات على قتلها ؟ لابد انه قد حدث شيء لم تذكره لنا ؟

ــ اوه ، نعم ، شيء فظيع ..

ــ حسن ، احك لنا ..

ــ اوه ، كلا ، سوف تقولون انه غير صحيح ، وانني مجنون .

ــ لا اهمية لذلك ، ماذا حدث ؟ قل ..

ــ ساقول لك وحدك ..

واقترب جاكمان من السيد ليدرو ، واراد رجلا الشرطة ان يمنعاه ، ولكن العمدة اشار اليهما فأطلقا سراحه ، اذ لو اراد الفرار لاستحال عليه ذلك لأن نصف سكان فونتناى أوروز قد ملأوا شارع ديانا والشارع الكبير .

اقترب جاكمان كما قلت من اذن السيد ليدرو وقال بصوت خفيض :

أتصدق ياسيد ليدرو ان راسا يتكلم بعد ان ينفصل عن الجسد؟

فصاح السيد ليدرو مندهشا ، وشحب وجهه بشكل واضح .

ــ هل تصدق ذلك ؟ اجب ..

فقال السيد ليدرو بعد جهد : نعم اصدق .
ـ حسن ، حسن ! لقد تكلم الراس .
ـ من ؟
ـ الراس .. راس جان .
ـ ماذا تقول ؟
ـ اقول انها ظلت مفتحة العينين ، وحركت شفتيها ونظرت الى .. نظرت الى ونادتنى قائلة .. « أيهاالتعس ! »

وبدا جاكمان مخيفا وهو ينطق بهذه الكلمات التى وجهها للسيد ليدرو وحده ، ومع ذلك سمعها الجميع . وصاح الطبيب ضاحكا :

ـ يا للمبالغة ، أتكلمت ؟ رأس مقطوع يتكلم !
فاستدار جاكمان وقال : أؤكد لكم ذلك !

وقال رئيس الشرطة : حسن ، هذا سبب آخر يدعونا للتوجه الى مكان الجريمة .. هيا أيها الشرطة خذوا القاتل .

فصاح جاكمان وهو يتلوى : لا ! لا ! قطعونى اربا اذا شئتم ولكن لن اذهب .

السيد ليدرو : تعال أيها الصديق ، اذا كنت قد ارتكبت فعلا هذه الجريمة التى تتهم نفسك بها ، فسيكون فى حضورك غفرانلك .

ثم قال له بصوت خفيض : ثم ان المقاومة لا تجدى ، فاذا رفضت المجىء بنفسك فانهم سوف يأخذونك الى هناك بالقوة .

جاكمان : حسن ، اذن ساذهب ، ولكن عدنى بشىء ياسيد ليدرو ..
ـ أى شىء ؟
ـ لا تتركنى أبدا طول الوقت الذى نقضيه فى القبو .
ـ لن أتركك .
ـ وتدعنى أمسك يدك .
ـ نعم ..
ـ حسن ، هيا بنا !

واخرج من جيبه منديلا بمربعات وجفف العرق الذى نضح على جبينه . واتجه الجميع نحو زقاق الشرطة ، فتقدم رئيس الشرطة والطبيب الجمع يتبعهما جاكمان والشرطيان ، وخلفهما السيد

ليدرو والرجلان اللذان ظهرا على بابه عند خروجه ، واندفع وراءهم الاهالى كالسيل المتدفق ، وانا معهم . ووصلنا الى زقاق الشرطة بعد ان سرنا حوالى الدقيقة . والزقاق حارة صغيرة الى يسار الشارع الكبير ، تنحدر حتى باب كبير من خشب متآكل يفتح بمصراعين كبيرين ، وباب صغير يفتح وسط أحد المصراعين ، ولم يعد الباب يرتكز الا على محور واحد .

وفى المنزل بدا كل شىء ساكنا لأول وهلة ، وكان بالباب شجيرة ورد يانعة ، وعلى مقعد حجرى بالقرب من الشجيرة ، جلست قطة كبيرة حمراء تستدفىء فى هدوء تحت أشعة الشمس . وعندما لمحت القطة هـذا الجمع وسمعت كل هذه الجلبة فزعت فهربت واختفت فى فتحة احد القباء .

وحين وصلنا الى الباب الذى وصفته ، وقف جاكمان ، واراد الشرطيان أن يدخلاه بالقوة ، فاستدار ناحية السيد ليدرو وقال له:

— مسيو ليدرو ، لقد وعدتنى الا تتركنى .

العمدة : نعم ، هاأنذا ..

— ذراعك ! ذراعك !

وترنح ، كأنه يوشك ان يسقط . واقترب السيد ليدرو واشار الى الشرطيين ان يتركا المقبوض عليه ، ثم قدم اليه ذراعه وقال : انا مسئول عنه. وكان واضحا ان السيد ليدرو لايتصرف فى هذه اللحظة بصفته عمدة المنطقة الذى ينفذ الاجراءات الجنائية بصدد جريمة ارتكبت ، وانما كفيلسوف يرتاد المجهول ، ودليله فى هـذه الرحلة الكشفية رجل قاتل .

دخل الطبيب ورئيس الشرطة فى المقدمة يتبعهما السيد ليدرو وجاكمان ثم الشرطيان وبعض الاشخاص المميزين وأنا منهم ، بفضل اتصالى بالشرطيين بعد أن تعرفت بهما فى السهل واطلعتهما على رخصة حمل السلاح . وأغلق الباب دون سائر الاهالى الذين ظلوا فى الخارج يزمجرون . وتقدم الجميع نحو باب المنزل الصغير .

لم يكن هناك ما ينبىء عن الحادث الفظيع ، فقد كان كل شىء فى موضعه : السرير المصنوع من اللبود الاخضر فى المخدع ، وعلى رأس السرير صليب خشبى أسود يعلوه غصن من نبات «البقس»

مجعف منذ عيد الفصح السابق . وعلى المدفأة تمثال من الشمع للمسيح الطفل ، راقدا بين الازهار . وعلى جانبيه شمعدانان من طراز لويس السادس عشر ، كانا فيما مضى مفضضين ، وعلى الحائط اربعة نقوش ملونة محوطة باطر خشبية سوداء تمثل اركان العالم الاربعة ، وعلى منضدة ادوات الطعام . وعلى الموقد غلاية ، وعلى مقربة من ساعة حائطيه تدق كل نصفه ساعة وعاء للعجن مكشوف .

قال الطبيب مرحا : حسن ! لا ارى شيئا حتى الآن .

فتمتم جاكمان بصوت اجوف : ادخلوا من الباب الايمن .

وتبع الجميع قول السجين ، ووجدنا أنفسنا فى مكان كالمخزن ، فى زاويته فتحة يتذبذب خلالها ضوء آت من اسفل . وتشبث جاكمان بيده بذراع السيد ليدرو ، وأشار باليد الاخرى الى فتحة القبو متمتما : « هناك ، هناك » فابتسم الطبيب ، ابتسامة رهيبة ينفرد بها اولئك الذين لا يتأثرون بشيء لأنهم لايؤمنون بأى شيء ، وقال لرئيس الشرطة بصوت خفيض : آه ! آه ! يظهر أن مدام جاكمان قد اتبعت سنة السيد آدم — وتمتم يغنى :

ان مت فلتدفنونى .. فى القبو حيث ...

فقاطعه جاكمان ، ووجهه شاحب ، وشعره أشعث ، والعرق ينضح من جبينه : صه ، لا تغن هنا !

فسكت الطبيب عند سماعه نبرة هذا الصوت ، ولكنه صاح فى الوقت نفسه ، وقد هبط الدرجات الاولى من السلم : ماهذا ؟ وانحنى ليلتقط سيفا عريض النصل : كان هذا هو السيف ذو المقبضين الذى أخذه جاكمان من متحف المدفعية فى ٢٩ من يولية سنة ١٨٣٠ كما قال من قبل ، وكان النصل مضرجا بالدم ، فتناوله رئيس الشرطة من يد الطبيب وقال للسجين : أتعرف هذا السيف ؟

جاكمان : نعم ، دعنا ننته من هذا كله ..

وكان السيف هو الدليل الاول فى الجريمة . ودخلنا القبو بالترتيب الذى سبق ذكره : ففى المقدمة الطبيب ورئيس الشرطة ، ثم السيد ليدرو وجاكمان ، والشخصان اللذان كانا فى داره ، ورجال الشرطة ، ثم الاشخاص المختارون وأنا منهم . وبعد أن

هبطنا الدرجة السابعة جالت عيناى في انحاء القبـــو واحاطت بالمجموعة الرهيبة من الاشياء التي ساحاول الآن تصويرها .

فاول ما وقعت عليه الانظار جثة بلا راس ممدة بجوار برميل ذي صنبور نصف مفتوح يسيل منه الى الارض خيط من النبيذ يجرى في قناة تمتد حتى تختفي تحت جدار القبو . وكانت الجثة ملتوية نصف لوية ، وكان جذعها حين استدار الى الخلف قد اخذته حركة احتضار لم تستطع الساقان ان تجاريه فيهما . والرداء قد تشمر من احـد الجوانب حتى حمالة الجورب . وكان من الواضح ان الضحية قد ضربت وهي راكعة على ركبتيها امام البرميل تملأ منه زجاجة ما لبثت أن أفلتت من يديها وبقيت ملقاة بجانبها . وكان الجزء العلوى من الجثة غارقا في بركة من الدماء . ولمحنا الراس موضوعا على كيس للجبس مسنود الى الحائط ، وكأنه تمثال نصفي قائم على عمود ، غارق في شعره . وامتد خيط من الدم صـبـغ الـكيس باللون الاحمر من اعلاه حتى منتصفه .

وتولى الطبيب ورئيس الشرطة فحص الجثة من كل نواحيهـا ، ووجدا نفسيهما اخيرا قبالة السلم .

وفي وسط القبو وقف صـديقا السيد ليدرو وبعض الطفيليين الذين تمكنوا من الوصول الى هناك . ووقف جاكمان عند أسفل السلم ، ولم يستطع احد ان يدفعه الى أبعد من الدرجة الاخيرة . ووقف رجلا الشرطة خلف جاكمان ، ووراءهما خمســة اشخاص او ستة ، انا منهم ، تجمعنا فوق السلم . وكان القبو المظلم مضاء بشعاع متذبذب صادر من شمعدان فوق البرميل الذى يسيل منه النبيذ ، وتمتد امامه جثة امرأة جاكمان .

قال رئيس الشرطة : الى بمنضدة وكرسى ، ولتحرر المحضر .

محضر التحقيق



(٣) محضر التحقيق

احضر بعضهم الاثاث المطلوب وسلمه الى رئيس الشرطة الذى احكم وضع المنضدة وجلس امامها وطلب الشمعدان الذى أحضره الطبيب متخطيا الجثة فى طريقه ؛ واخرج من جيبه محبرة وريشة وورقا ، وبدا فى تحرير المحضر . واذ هو يكتب المقدمة ، التفت الطبيب فى فضول ناحية الراس الموضوع على كيس الجبس ، ولكن رئيس الشرطة نبهه قائلا : لا تلمس شيئا ، النظام قبل كل شيء .

وأجاب الطبيب: « هذا صحيح » ، وعاد الى مكانه .

ومرت دقائق فى سكون لم يكن يتخلله سوى صوت ريشة رئيس الشرطة وهى تئز على ورق الحكومة الخشن ، والسطور تتعاقب على الورق بسرعة الكاتب الذى اعتاد هذه الصيغ الشكلية . وبعد بضعة سطور رفع رئيس الشرطة راسه ونظر حوله وسال العمدة : من منكم يريد أن يشهد ؟ فاشار العمدة الى صديقيه الواقفين اللذين كانا ضمن جماعة رئيس الشرطة ، وقال : هذان السيدان اولا .

ــ حسن ! ..

ثم التفت ناحيتي وقال : وهذا السيد ، اذا لم يكن عنده مانع فى ظهور اسمه فى المحضر .

فاجبت : نعم ياسيدى . لا مانع عندى بالمرة .

قال رئيس الشرطة : اذن فلينزل السيد .

وشعرت بشيء من التقزز عند اقترابى من الجثة . وبدت بعض التفاصيل التى جذبت انتباهى حيث كنت واقفا اقل بشاعة مما

هى فى حقيقتها لانها كانت غارقة فى شبه ظلام يضفى عليها ثوبا شاعريا .

فسألت : اضرورى هذا ؟

ــ ماذا ؟

ــ ان انزل ؟

ــ كلا ، ابق حيث انت ان كنت مرتاحا هناك .

فاومات برأسي بما معناه انني أريد البقاء في مكاني .

واستدار رئيس الشرطة صوب اقرب صديقى السيد ليدرو اليه. وساله بطلاقة رجل اعتاد توجيه مثل هذه الأسئلة :

ــ اسمك ولقبك وعمرك وصفتك ومهنتك ومحل اقامتك ؟

ــ جان لوى اليبت المشهور باتيللا ، من رجال الادب ، اقطن شارع الكوميديا القديمة رقم ٢٠ .

ــ نسيت أن تذكر سنك .

ــ سنى الحقيقية أم السن التى يقدرها لى الناس ؟

ــ قل لى سنك من فضلك ، ليس للانسان سنان .

ــ اريد ان اقول ياسيدى الرئيس ان هناك بعض الناس مثل كاليوسترو والكونت دو سان جرمان واليهودى المتجول ...

فقطب رئيس الشرطة حاجبيه اذ حسب الرجل يسخر منه وقال : تريد أن تقول انك كاليوسترو او الكونت دو سان جرمان أو اليهودى المتجول ؟

ــ لا ، ولكن ...

فقال السيد ليدرو : خمسة وسبعون عاما ، اكتب خمسة وسبعين ياسيد كوزان .

ــ فليكن .

وكتب خمسة وسبعين عاما . ثم خاطب الصديق الثانى للسيد ليدرو :

ــ وأنت أيها السيد ؟

ووجه اليه نفس الاسئلة التى وجهها الى زميله الاول ، فأجاب هذا بصوت رقيق : بيير جوزيف مول ، عمرى واحد وستون عاما ،

من رجال الدين ملحق بكنيسة سان سوبليس ، واقيم بشارع سرفاندونى رقم ١١ .

وسألنى : وانت ياسيدى ؟

ـ الكسندر دوما ، مؤلف قصصي ، عمرى سبعة وعشرون عاما ، اقطن باريس ، شارع الجامعة رقم ٢١ .

فالتفت السيد ليدرو ناحيتي وحياني بايماءة لطيفة أجبت عليها بمثلها على قدر ما استطعت . وقال رئيس الشرطة : حسن أيها السادة ، انظروا اذا كانت هذه هي الحقيقة ، واذا كان لديكم ملاحظات تريدون ابداءها . وشرع يقرأ بصوته الاخنف الرتيب الذى يتميز به الموظفون العموميون .

فى تاريخه ـ أول سبتمبر عام ١٨٣١ ـ فى الساعة الثانية بعد الظهر ، علمنا ان جريمة قتل قد ارتكبت منذ قليل فى مقاطعة « فونتناى اوروز » وراحت ضحيتها « مارى جان ديكودراى » ، وقاتلها وهو زوجها المدعو بيير جاكمان قد توجه بنفسه الى دار عمدة المقاطعة المذكورة السيد جان بيير ليدرو واعترف له بانه هو القاتل . وعلى ذلك بادرنا بالذهاب الى محل اقامة جان بيير ليدرو المذكور بشارع ديانا رقم ٣ ومعنا السيد « سباستيان روبير » الطبيب المقيم بالمقاطعة المشار اليها ، فوجدنا هناك المدعو بيير جاكمان فى أيدى رجال الشرطة . واعاد المذكور على أسماعنا اعترافه السابق بقتله امرأته . وعلى ذلك طلبنا اليه أن يتبعنا الى المنزل الذى ارتكبت به الجريمة ، فرفض اول الأمر ، ولكنه أذعن بعد أن ألح عليه حضرة العمدة . وتوجهنا الى زقاق الشرطة حيث المنزل الذي يقطنه السيد بيير جاكمان . ولما وصلنا الى المنزل المذكور دخلناه واغلقنا الباب خلفنا لنمنع الأهالي من الدخول .

ودخلنا أولا فى غرفة لم نجد بها شيئا يدل على حدوث جريمة ، ثم غرفة ثانية دعانا الى دخولها المذكور « جاكمان » ، وفى ركن من هذه الغرفة فتحة تؤدى الى سلم قيل لنا انه يؤدي الى قبو به جثة القتيلة . واخذنا نهبط السلم حيث وجد الطبيب على أولى درجاته سيفا له مقبض على شكل صليب ونصل عريض قاطع ، اعترف جاكمان المشار اليه بانه قد حصل عليه لمثناء ثورة يولية

من متحف المدفعية واستخدمه في ارتكاب الجريمة ، ووجدنا على ارض القبو جثة امراه جاكمان مقلوبة على ظهرها وسابحة في بركة من الدماء ، وقد فصل عنها الراس الذى وضع على كيس للجبس مسند الى الحائط . واقر جاكمان أن هـــذه جثـــة زوجتـــه ورأســـها ، وذلك بحضور السيد « جان بير ليدرو » عمدة مقاطعة فونتناى أوروز ، والسيد « سبـــاستيان روبير » الطبيب المقيم بالمقاطعة المذكورة ، والسيد « جان لوى الييت » المشهور باتيللا ، من رجال الادب ، ويبلغ من العمر خمســة وسبعين عاما ، ويقطن باريس بشارع الكوميديا القديمة رقم ٢٠ ، والســـيد « بيير جوزيف مول » ويبلغ من العمر واحدا وستين عاما ، من رجـال الدين وملحق بكنيســة « سان سوبليس » ويقطن باريس بشـــارع سرفاندوني رقم ١١ ، والسيد الكسندر دوما ، مؤلف قصصى ، في السابعة والعشرين من عمره ، يقطن باريس بشارع الجامعة رقم ٢١ . وشرعنا في استجواب المتهم كما يلى :

والتفت الينا رئيس الشرطة وعلى وجهه سمات الارتياح :

ـ اليس كذلك أيها السادة ؟

فاجبنا جميعا بصوت واحد : تماما ياسيدى !

ـ حسن ، فلنستجوب المتهم .

والتفت الى المتهم الذى كان يتنفس بصوت مزعج كانه يختنق طوال المدة التى استغرقتها مطالعة المحضر ، وقال له :

ـ أيها المتهم ، ما اسمك ولقبك وعمرك ومحل اقامتك ومهنتك؟

فسأله المتهم وهو خائر القوى : ايطول هذا ايضا ؟

ـ أجب ؟ اسمك ولقبك ؟
ـ بيير جاكمان .
ـ وعمرك ؟
ـ احدى واربعون سنة .
ـ ومحل اقامتك ؟
ـ انت تعرفه جيدا ، لانك به الآن .
ـ ولو ، القانون يأمرك أن تجيب عن هذا السؤال .
ـ زقاق الشرطة .

— ومهنتك ؟
— عامل بالمحاجر .
— اتعترف انك مرتكب الجريمة ؟
— نعم .
— قل لنا السبب الذى دفعك الى ارتكابها والظروف التى ارتكبت فيها .
— السبب فى ارتكابها .. مستحيل ، هذا سر سيبقى بينى وبينها .... تلك الراقدة هناك .
— ومع ذلك فليس هناك نتيجة بلا سبب .
— قلت لك انك لن تعرف السبب . انها الظروف كما تقول ، فهل تريد ان تعرفها ؟
— نعم .
— حسن ! ساقولها لك . حينما يشتغل المرء تحت الارض ، كما نشتغل نحن ، فى الظلام ، ثم يعتقد ان به ما يثير اشجانه ، تضيق روحه ، فتمر بخاطره افكار شريرة ..
فقاطعه رئيس الشرطة قائلا : اوه ! اوه ! تعترف اذن بسبق الاصرار ؟
— آه ، الا يكفيك أن أقول انى أعترف بكل شيء ؟
— حسن ، تكلم .
— نعم ، حملتنى الفكرة الخبيثة التي وردت علىخاطرى ان اقتل جان . وكانت هذه الفكرة قد ازعجتنى اكثر من شهر، وقاومها قلبى ، لكن كلمة واحدة قالها احد زملائى جعلتنى اعقد العزم .
— اية كلمة ؟
— اوه ! هذا لا يعنيك . قلت لجان فى هذا الصباح : لن اذهب اليوم الى العمل ، واريد ان آتلهى كأن اليوم عيد ، سالعب الكرة مع رفاقى ، وعليك اعداد طعام الغداء قبل الساعة الواحدة .
— ولكن ...
— حسن ، لا تعارضى ، الغداء الساعة الواحدة ، اتفهمين ؟
— نعم .
وخرجت جان لاحضار حساء الكرنب . وفى هذه الاثناء تناولته

السيف الموجود امامكم بدلا من ان اذهب لالعب الكرة ، وشحذت النصل بنفسي على حجر المسن ، ثم نزلت الى القبو واختبأت خلف البراميل ، وقلت لنفسي : « انها ستنزل الى القبو لتأخذ النبيذ، وعندئذ سوف نرى » . ولم ادر كيف مر الوقت وانا قابع هناك خلف البراميل .. كنت محموما وقلبي يدق بشدة ، وظلام الليل احمر متوهجا في نظري . ثم سمعت صوتا ردد في نفسي وحولي تلك الكلمة التي قالها لي زميلي بالامس .

وهنا قال رئيس الشرطة : ولكن ... ما هي تلك الكلمة ؟

ــ مستحيل ، قلت لك انك لن تعرفها ابدا . وأخيرا سمعت حفيف ثوب وخطوة تقترب ، ورايت ضوءا يتذبذب ، ثم ظهر الجزء الاسفل من جسمها وهو يهبط ، ثم الجزء العلوي ، ثم الراس ، رايت الراس جيدا . وكانت ممسكة بشمعدان .. نعم ، وقلت لنفسي بصوت منخفض تلك الكلمة التي قالها زميلي . وفي هذه الاثناء اخذت تقترب ، واقسم لك بشرفي .. كان يبدو انها تتوقع مصيبة تحل بها . كانت خائفة ، وجعلت تتلفت حولها ، ولكني كنت مختبئا جيدا ، ولم اتحرك . وعندئذ ركعت امام البرميل ووضعت الزجاجة تحت الصنبور وفتحته . اما انا فقد نهضت.. كانت راكعة كما قلت ، ومنعها صوت النبيذ المتساقط في الزجاجة من سماع اي صوت قد يبدو مني ، ثم انه لم يصدر مني بالفعل اي صوت . كانت راكعة كما يركع المتهم او المحكوم عليه ، فرفعت السيف ، وضربت ! ولم ادر اذا كانت قد صاحت ام لا ، ولكن الراس تدحرج . وفي تلك اللحظة لم افكر في الموت بل اردت الفرار . وخطر لي ان احفر في القبو حفرة ادفنها فيها ، فاندفعت نحو الراس الذي كان يتدحرج ، بينما كانت الجثة تهوي الى الارض ، وكان عندي كيس مملوء بالجبس اعددته لاخفاء الدم . وعليه فقد امسكت الراس او بالاحرى امسكتني الراس . انظروا ...

وأرانا يده اليمنى ، وقد بترت عضة قوية ابهامها . فصاح الطبيب :

ــ كيف ذلك ! امسكك الراس ؟ ما هذا الكلام بحق الشيطان؟

ـ أقول انها عضتني بأسنانها الجميلة كما ترون .. وأقول انها لم ترد أن تخلي ســـبيلي . ووضعت الراس على كيس الجبس وأسندته الي الحائط بيدى اليسرى وحاولت ان انتزع منه يدى اليمني ، ولـكن ارتخت الاسنان من تلقـائها بعد لحظة فسحبت يدى ، وعندئذ خيل الي ان الراس لم يزل حيا وان العينين مفتوحتان تماما . قد أكون مخبولا ، ولـكنى رايت ذلك جيدا . فقد كان الشمعدان فوق البرميل ، والشفتان تتحركان ، وفي حركتهما قالتا : أيها التعس ، انا بريئة .

ولا أعرف مدى الاثر الذى احدثه هذا الاعتراف في الآخرين ، ولـكنى احســست بالعرق يسيل على جبينى .

وصاح الطبيب : آه ! ما افظع ذلك ! انظرت العينان اليك ؟ انـكلمت الشفتان ؟

ـ اسمع ياسيدى الطبيب ، انت لا تصدق شيئا لانك طبيب ، وهـذا أمر طبيعى ، ولـكنى أؤكد لك ان الراس الذى تراه هناك .. هناك .. اسمع ؟ أؤكد لك انه عضني .. ذلك الراس .. وانها قالت « أيها التعس ، انا بريئة » والبرهان على ذلك .. نعم البرهان .. هو انني أردت الفرار بعد أن قتلتها .. أليس كذلك ؟ وانه بدلا من ان افر أسرعت الى منزل سيدى العمدة ، أليس هذا حقيقيا ؟ أجب ..

فأجاب الســـيد ليدرو بصوت ملؤه العطف : نعم يا جاكمان : نعم ، هذا صحيح .

وطلب رئيس الشرطة من الطبيب أن يفحص الراس ، فصــاح جاكمان :

ـ بعد أن انصرف ياسيد روبير ، بعد ان انصرف .

وقال له الطبيب وهو يتناول الشمع المشتعل ويقترب من كيس الجبس :

ـ أتخشى ان يكلمك الراس ثانية أيها الأبله ؟

ـ ياسيد ليـدرو .. بحق السماء أرجوك أن تطلب اليهم أن يدعوني انصرف ، اتوسل اليك ..

العمدة (باشارة أوقفت الطبيب) : سادتي ، لم يبق عند هذا التعس ما يمكن أن تستخلصوه منه ، فاسمحوا لي أن أطلب اقتياده

الى السجن. ان القانون حين قضى بالمواجهة ، افترض ان المتهم يملك القوة الكافية لاحتمالها .

رئيس الشرطة : ولكن المحضر ؟

العمدة : لقد انتهى تقريبا .

رئيس الشرطة : يجب ان يوقع عليه المتهم .

العمدة : يوقع عليه في السجن .

جاكمان (صائحا) : نعم . نعم . اوقع في السجن على كل ما تريدون .

رئيس الشرطة : حسن !

السيد ليدرو : ايها الشرطة . خذوا هذا الرجل !

جاكمان (بلهجة امتنان عميق) : آه ! شكرا ياسيد ليدرو ، شكرا .

واخذ بذراعي الشرطيين وجرهما الى اعلى السلم بقوة تفوق قوة البشر وانتهت المأساة بانصراف الرجل ، ولم يبق في القبو سوى شيئين مخيفين . جثة بلا راس وراس بلا جثة . وملت بدوري ناحية السيد ليدرو وقلت له :

ــ سيدي ، اتسمح لي بالانصراف ، على ان اكون تحت طلبكم لتوقيع المحضر ؟

ــ نعم ياسيدي ، ولكن بشرط واحد .

ــ اى شرط ؟

ــ أن توقع المحضر في منزلى ..

ــ بكل سرور ياسيدى ، ولكن متى ذلك ؟

ــ في ظرف ساعة على وجه التقريب ، وسوف أدلك على منزلى الذى كان ملكا لاسكارون ، وسوف يهمك ذلك

ــ سأكون عندك ياسيدى في ظرف ساعة .

وحييته ، وصعدت السلم بدورى ، ولما وصلت الى اعلى الدرجات القيت نظرة اخيرة الى القبو . كان الطبيب روبير ممسكا بالشمعدان ، يباعد بيده ما بين شعر الراس ، راس امراة لم تزل جميلة ، على قدر ما يتسنى الحكم عليها ، لأن العينين

مغلقتان ، والشفتين باهتتان متقلصتان .

قال الطبيب : هـــذا الابله ، جاكمان ! يصر على ان راســا مقطوعا قد تــكلم ! اللهم الا اذا كان يدعى ذلك ليعتقد الجميع انه مجنون ، وفى هــذه الحالة يكون قد أتقن التمثيل .. وتكون هناك ظروف مخففة ..

منزل آل اسكارون



(٤) منزل آل اسكارون

وبعد ساعة ، وصلت الى منزل السيد ليدرو ، وقابلته صدفة في فناء المنزل فقال عندما رآني : آه ! هانت ذا ! يسرني أن احادثك قليلا قبل ان اقدمك الى مدعوينا لانك ستتناول الغداء معنا ، اليس كذلك ؟

ـ ولكن اعذرني ياسيدي ..

ـ لا اقبل اى عذر .. اليوم الخميس ، وهذا من حظك لأن يوم الخميس هو يومي ، وكل من يزورني في يوم الخميس فهو تحت تصرفي . ولك أن تختار بين البقاء والانصراف بعد تناول الغداء ، ولولا حادث اليوم لوجدتني جالسا الى المنضدة ، مع العلم بأني اتناول الطعام دائما في الساعة الثانية . أما اليوم فاننا سنتناول الطعام بنوع من الاستثناء في الساعة الثالثة والنصف أو الرابعة. هذا « بيروس » الذي تراه (واشار الى كلب حراسة ضخم) قد انتهز فرصة انفعال الأم انطوان واستولي علي قطعة الفخذ ـ هذا من حقه ـ واصبح لزاما علينا أن نبحث عن قطعة أخرى عند الجزار . أقول أن عندي فرصة كافية ، لا لأقدمك الى ضيوفي فحسب ، وانما لأعطيك أيضا بعض المعلومات عنهم .

ـ بعض المعلومات ؟

ـ نعم ، هنا كانت المرأة التي أصبحت فيما بعد زوجة الملك لويس الرابعءشر تعني بزوجها الاول المسكين المقعد ، قبل أن تتولى الترفيه عن الرجل الذى يصعب الترفيه عنه ، وسوف ترىغرفتها.

ـ غرفة مدام دى مانتنون ؟

ـ لا ، مدام اسكارون ، لا تخلط بينهما ، فغرفة مدام دى مانتنون في قصر فرساى أو في سان سير . تعال .

وصعدنا سلما كبيرا ، ووصلنا الى طرقة تطل على الفناء .

السيد ليدرو : انظر ، هذا شيء سوف يؤثر فيك أيها الشاعر، هـذا اله الشمس الذي كانوا يتحدثون عنه في عام ١٦٥٠ .

ــ آه ! آه ! خريطة « تندر » .

ــ خريطة الذهاب والعودة ، مرسومة بيد اسكارون ، وعليهـا تعليق بخط امراته ولا شيء غير هذا ..

كانت هناك في الحقيقة خريطتان مثبتتان بين النوافذ ، ومرسومتان بريشة ، كل منهما على قطعة ورق كبيرة ملصقة على ورق مقوى.

واسترسل السيد ليدرو قائلا : أترى هذه الحية الزرقاء ؟ انها نهر «تندر » وتلك الابراج الصغيرة ، انها قرى « الغابة الصغيرة» ، و « الرسائل الغرامية » و « السر » . وهـذا شاطيء «الرغبة» ووادى « الحلوى » وجسر « الآهات » وغابة « الغيرة » ، وكلها آهل بالوحوش كغابة « ارميد » . وهناك اخيرا ، وسط البحيرة حيث ينبع النهر قصر « القناعة التامة » هنا خاتمة الرحلة ونهاية المطاف .

ــ يا للشيطان ! ماذا ارى هنا ؟ بركان ؟

ــ نعم ، انه بركان « الشهوات » الذى يقلب البلاد أحيانا .

ــ الا يوجد بركان في خريطة المدموازيل « دى سكوديرى » ؟

ــ لا ، انه من اختراع مدام « بول اسكارون » . هذا عن احدى الخرائط .

ــ والاخرى ؟

ــ الاخرى هى « العودة » . انظر ، ان النهر يفيض . لقـد تضخم بدموع أولئك الذين يسيرون على ضـــفتيه . انظر كفور « الملل » ، وفندق « الاسف » وجزيرة « النـدم » . لا شيء ابدع من هذا .

ــ هل تتكرم وتاذن لي أن أنسخ هذا الرسم ؟

ــ آه ، كما تشاء ، والآن الا تريد أن ترى غرفة مدام اسكارون؟

ــ اظن ذلك .

ــ هاهى ذى ..

وفتح السيد ليدرو بابا ودعانى للمرور أمامه .

ــ هى اليوم غرفتى ، اقدمها لك ــ باستثناء ما تزدحم به من الكتب ــ كما كانت في عهد صاحبتها المشهورة : فهذا نفس المخدع والفراش والاثاث ، ومكان الزينة .

ـ وغرفة اسكارون ؟

ـ اوه ! كانت غرفته فى نهاية الدهليز ، ولكنى لا استطيع ان اريها لك اذ لايدخلها أحد ، فهى الغرفة السرية ، مقصورة « ذى اللحية الزرقاء » .

ـ يا للشيطان !

ـ انها كذلك . ان لى أسرارا ، رغم اننى العمدة . ولكن تعال، سأريك شيئا آخر .

وتقدمنى السيد ليدرو ، ونزلنا السلم ودخلنا غرفة الاستقبال. ولهذه الغرفة سمة خاصة ، كما هو شأن باقى أجزاء المنزل ، فجدرانها مغطاة بورق يصعب معرفة لونه الاصلى ، وعلى طول الحائط صفان من المقاعد ذات النمارق يحف بهما صف آخر من الارائك العادية . وكلها مبطنة بقماش قديم . وهنا وهناك مناضد للعب ، ومناضد صغيرة مستديرة . وفى وسط كل هذا الاثاث مكتب ضخم ، كاللوياثان (١) ، يستند أحد طرفيه على الحائط ، ويمتد حتى ثلث الغرفة ، ومغطى بالكتب والكراسات والصحف يبرز وسطها كما يبرز الملك وسط شعبه ، كتاب « الدستور » ، الذى يفضله السيد ليدرو . وكانت غرفة الاستقبال خاوية ، والمدعوون يتنزهون فى الحديقة التى تبدو كل اجزائها من النوافذ . وتوجه السيد ليدرو مباشرة الى مكتبه وفتح درجا كبيرا به مجموعة من الربطات الصغيرة التى تشبه اكياس الحبوب . وكانت الاشياء الموجودة فى هذا الدرج ملفوفة بورق عليه بطاقات .

ـ انظر ، أيها المؤرخ ، هذه اشياء تهمك رؤيتها اكثر من خريطة « تندر » ، هذه مجموعة من العاديات من مخلفات الملوك لا القديسين .

كانت كل ربطة تحوى بالفعل قطعة من العظم او شعرا او ذقنا ، ففيها رضفة شارل التاسع ، وابهام فرانسوا الاول وقطعة من جمجمة لويس الرابع عشر ، وضلع من هنرى الثانى ، وفقرة من لويس الخامس عشر ، وشعر من ذقن هنرى الرابع ، وخصلة من شعر لويس الثالث عشر . لقد قدم كل ملك عينة من جسده . فاذا جمعنا كل هذه العظام استطعنا ان نركب هيكلا تقريبيا يمثل الاسرة المالكة الفرنسية التى تعوزها العظام الرئيسية منذ أمد

(١) وحش بحرى يرمز الى الشر فى الكتاب المقدس

طويل . وهناك غير هذا سنة من فك « ابيلار » وسنة من فك « هلواز » — سنتان من القواطع البيض ، كان من المحتمل ان يتلاقيا فى قبلة عندما كانت تكسوهما الشفاه المرتجفة ، فمن أين اتت هذه العظام ؟ لقد اشرف السيد ليدرو على استخراج جثث الملوك فى « سان دينس » واخذ من كل مقبرة ما أراد أن يأخذه . واتاح لى مسيو ليدرو لحظات قليلة لأشبع فضولى . ولما وجد اننى قد فحصت كل البطاقات قال :

— هيا بنا ، كفانا اهتماما بالموتى . . ولننتقل قليلا الى الاحياء .

وانتقل بى الى جانب احدى النوافذ التى تشرف كلها على الحديقة كما قلت .

قلت له : عندك حديقة رائعة .

— هى حديقة خورى ، غنية بأشجار الزيزفون المصفوفة فى مربعات ، وأشجار « الداليا » ، وشجيرات الورد وتكعيبات العنب والخوخ والمشمش ، وسترى كل ذلك . ولكن دعنا الآن من هذا ولنهتم بالاشخاص الذين يتجولون فيها .

— آه ! قل لى اولا ، من يكون هذا السيد « الييت » المشهور باتيللا الذى سأل عما اذا كان المطلوب معرفة سنه الحقيقية او سنه الظاهرية . انه يبدو تماما فى السن التى قدرتها له ، اى فى الخامسة والسبعين .

— تماما ، لقد قصدت ان ابدأ حديثى عنه . هل قرأت « هوفمان » ؟

— نعم ، لماذا ؟

— حسن ! هو من انصار هوفمان . لقد أمضى حياته كلها يحاول استعمال الخرائط والارقام للتكهن بالمستقبل ، وينفق كل ما بيده على اليانصيب ، فربح فى البداية رقما واحدا ، ولكنه لم يربح بعد ذلك شيئا على الاطلاق . كان يعرف « كاليوسترو » والكونت دى سان جرمان ، ويدعى انه من أسرتهم ، وان عنده مثلهم سر اكسير الحياة الطويلة . فاذا طلبت اليه ان يخبرك عن عمره الحقيقى ، قال مائتين وخمسة وسبعين عاما ، عاش منها أولا مائة عام دون ان يصيبه عجز ، من عهد هنرى الثانى الى عهد لويس الرابع عشر ، ثم استطاع بفضل الاكسير أن يعيش ثلاث فترات أخرى طول كل منها خمسون عاما ، رغما من انه كان يعتبر ميتا

فى نظر العامة . وهو الآن فى بداية الفترة الرابعة ، وقد انقضى عليه فيها خمسة وعشرون عاما فقط . اما المائتان والخمسون عاماالاولى من عمره فلم يعد لها تقدير الا فى ذاكرته ، وسيعيش هكذا ، كما يقول جهارا ، حتى يوم الحساب . وكان الناس فى القرن الخامس عشر يحرقون أمثال البيت ، وكانوا فى ذلك مخطئين اما اليوم فالناس يرثونه فحسب ، وهم فى ذلك ايضا مخطئون ، فالبيت هذا اسعد رجل على وجه الارض ، اذ لا يهمه الا كشوف الطوالع والخرائط وفنون السحر ، وعلوم « تحوت » المصرية ، واسرار ايزيس ، وينشر فى هذه الموضوعات كتيبات لايقرؤها احد ، ينشرها له صاحب مكتبة — مجنون مثله — تحت اسمه المستعار « اتيللا » . وتجد قبعته مملوءة دائما بكراسات صغيرة — انظر — ها هو ذا يمسكها تحت ذراعه خوفا من ان يسلبها احد . انظر الى جسمه ووجهه وثوبه ، ولاحظ تناسق الطبيعة . فالقبعة توائم الراس ، والجسم يتفق مع الثوب ، اى ان الثوب ينطبق على القالب ، كما تقولون أنتم اهل الادب .

ولم يكن هناك فى الواقع ما هو اكثر من هذا مطابقة للحقيقة ، اذ القيت على « البيت » نظرة فاحصة فوجدته يرندى ثوبا يعلوه شحم وتراب ، ثوبا باليا ملطخا بالبقع ، وعلى راسه قبعة عريضة من أعلى ذات حافة كالجلد اللامع ، وسرواله من صوف أسود ذى وبر ومربعات ، وجواربه سوداء او حمراء ، وحذاؤه مستدير كاحذية الملوك الذين يدعى انه ولد فى عهدهم . اما بالنسبة الى جسمه ، فهو رجل قصير القامة ، ربعة ، له وجه كوجه أبى الهول ، وعينان حمراوان ، وفم عريض خال من الاسنان ، وشعر قليل ، أصفر وطويل ، يرفرف كالهالة حول راسه .

قلت للسيد ليدرو : انه يتحدث مع القس « مول » الذى كان معنا فى قضية هذا الصباح التى سنعود الى الحديث عنها ، اليس كذلك ؟

فنظر الى السيد ليدرو بفضول وسالنى : ولماذا نعود الى الحديث عنها ؟

— معذرة ، ولكن يبدو انك تصدق ان ذلك الراس قد تكلم .

— انك قوى الفراسة . حسن ! هذا صحيح ، فانا اصدق ذلك . نعم سنتحدث فى كل ذلك . واذا كانت القصص التى من

هــذا النوع تستهويك فسوف تجد هنا من تحدثه في هذا المجال. ولـكن لننتقل الى القسي مول ..

فقاطعته قائلا : لابد ان يكون هذا الرجل لطيف المعشر ، وقد تأثرت من عذوبة صوته عندما اجاب على اسئلة رئيس الشرطة .

ــ حسن ! لقد اصبت في هذه المرة ايضا .. « مول » صديقي منــذ اربعين عاما ، وهو في الستين من عمره ، نظيف ومعتن بهندامه بعكس البيت برثاثته وقذارته ، اعتاد الحيــاة مع افراد الطبقــة الراقية المبرزين في مجتمع ضاحية سان جرمان . هو القس الذي يزوج ابناء وبنات اعيان فرنســا ، وينتهز فرصة كل زواج فيلقي خطبة صغيرة يطيعها الزوجان ويحافظان عليها بعناية شــديدة في اسرتيهما . وأوشك أن يصبح اسقف كليرمونت . أتعرف لماذا لم يتم له ذلك ؟ لأنه كان فيما مضى صديقا لـكازوت ، يؤمن مثله بوجود الارواح العلوية والسفلية ، والجن الطيب والخبيث ، وهو يقتني الـكتب مثل البيت ، فتجد عنده كل ما كتب عن الارواح والاشباح والاطياف . ومع انه لا يتكلم في هذه الاشياء التي ليست مؤكدة تماما الا بين الاصدقاء ، الا انه قوي العقيدة ، رصين الخلق ، يعزو كل الخوارق الى قوى الجحيم ، او الآلهــة . انظر ، انه ينصت في هدوء الى ما يقوله البيت ، وكأنه يتـأمل شيئا لا يراه محدثه ، ويجيب على حديثه من حين الى آخر بحركة من شفتيه او ايماءة من رأسه . ويحدث احيانا أن يكون معنا ، فاذا هو يغرق في تفكير عميق ، ثم يرتجف ويدير رأسه ويتمشى في القــاعة . وعندئذ يجب أن يترك وشأنه ، فقــد يكون من الخطر ايقاظه . أقول ايقاظه لأنني واثق من انه يتحرك وقتئذ وهو نائم . ثم يصـحو وحده ، فاذا هو ظريف ، كما سترى .

ــ اوه ! ولـكن قل لي .. يبدو لي انه قد استحضر الآن احد هــذه الارواح التي كنت تتكلم عنها !

واشرت بأصبعي الى شبح حقيقي متنقل ، انضم الى المتحدثين ووضع قدمه بحرص بين الازهار ، فـكأنه يستطيع أن يسير عليها دون أن يثنيها .

ــ هذا ايضا أحد اصدقائي ، الشيفالييه لينوار ..

ــ مؤسس متحف « لوبيتي اوجستان » ؟

ــ هو بنفسه . لقد أمضــه تشتيت متحفه الذي كاد يقتـل

بسببه عشر مرات فى سنتى ٩٢ ، ٩٤ . وجاء عهد عودة الملكية (من ١٨١٤ – ١٨٣٠) بعقليته السقيمة – فاغلق متحفه ومضى باعادة كل التحف الى المبانى التى أخذت منها والاسر التى تملك حق المطالبة بها . وكان معظم هذه الآثار لسوء الحظ قد تحطم ، ومعظم الاسر قد بادت ، ومن ثم تبددت اروع النماذج فى فن النحت ، وبالتالى فى تاريخنا القديم . وهكذا اندثر كل ما ينتمى الى فرنسا القديمة ، ولم يبق من تلك القطع الا القليل الذى سوف يندثر بعد قليل . ومن هم أولئك الذين يبددونها ؟ انهم نفس الاشخاص الذين من صالحهم المحافظة عليها .

وتنهد السيد ليدرو ، الذى قيل عنه فى ذلك الحين انه متحرر الفكر .

فسألته : هل كل أولئك مدعووك ؟

– قد يزورنا الدكتور روبير ، ولن احدثك بشىء عنه ؛ فانني اعتقد انك قد كونت فكرة عنه . هو رجل أمضى حياته كلها يجرى التجارب على الجهاز البشرى ، كما لو كان هذا الجهاز نموذجا خشبيا ؛ دون أن يفكر فى أن لهذه الآلة روحا تتألم واعصابا تحس بالألم ؛ انه حى مات بين يديه الكثيرون . وهو لحسن حظه لايؤمن بالأشباح . وهو شخص عادى يحسب نفسه ظريفا لكثرة ضجيجه ، أو فيلسوفا لأنه ملحد . انه من أولئك الرجال الذين نستقبلهم فى بيوتنا ، لا لاننا نحتفى بهم ، ولكن لأنهم يأتون لزيارتنا ، بينما لا يخطر لنا أبدا أن نذهب لزيارتهم حيث يكونون .

– أوه ياسيدى ، انى أعرف جيدا هذا النوع من الناس !

– كان يجب أن يكون هنا الآن صديق آخر ، اصغر سنا من الييت ومن القس مول والشيفاليه لينوار ، ولكنه يبارى الييت فى معرفة الطالع بورق اللعب ، ومول فى فنون الجان ، والشيفاليه لينوار فى الآثار ، فهو مكتبة حية ، وكتالوج محفوظ فى اهاب مسيحى ، رجل يجب أن تعرفه بنفسك .

– هاوى الكتب يعقوب ؟

– تماما .

– الن يأتى ؟

– لم يأت على الاقل . ولما كان يعرف اننا نتناول الغداء فى الساعة الثانية ، وقد أوشكت الساعة ان تدق الرابعة ، فانه

لا يحتمل مجيئه . انه يبحث عن الطبعة الاولى من كتاب طبع فى امستردام سنة ١٥٧٠ ، وبه ثلاثة أخطاء مطبعية ، احدها فى الورقة الاولى ، والثانى فى الورقة الثانية ، والثالث فى الاخيرة .

وفى هذه اللحظة فتح باب الصالون وظهرت الأم انطوان وقالت :

ـ تفضل ياسيدى ، الطعام حاضر .

ففتح السيد ليدرو باب الحديقة وقال : هيا ياسادة الى المائدة .. الى المائدة .

والتفت ناحيتى وقال : والآن لا بد أن يكون فى موضع ما من الحديقة مدعو ، من غير المدعوين الذين رايتهم وحدثتك عن بعض نواحى حياتهم ، مدعو لم تره من قبل ، ولم احدثك عنه ؟ وهو فى عزلة شديدة عن أمور الدنيا ، حتى انه لم يسمع النداء الجاف الذى وجهته منذ لحظة واستجاب له كل الاصدقاء . ابحث عنه ، هذا واجبك ، فاذا عثرت عليه وادركت تجرده من الماديات وصفاء روحه ، فاذكر اسمك وحاول ان تقنعه انه من المفيد للانسان احيانا ان يأكل ، ولو ليعيش ، وقدم له ذراعك وات به الى هنا ، هيا .

وامتثلت لطلب السيد ليدرو متوقعا أن تكون تلك الروح الساحرة التى اعجبت بصفاتها قد اعدت لى مفاجاة سارة . وتقدمت فى الحديقة متلفتا حولى . ولم يطل بحثى فقد لمحت بعد قليل ما كنت ابحث عنه : كانت امراة تجلس فى ظل خميلة زيزفون ، لم ار منها الوجه ولا الخصر ؟ لم ار الوجه لأنه كان ملتفتا ناحية الخلاء ، والخصر لأنه كان ملتفا بشال كبير . كانت متشحة بالسواد . واقتربت منها فلم تبد اية حركة ، كأن وقع خطواتى لم يطرق اذنيها . وكانت تبدو كالتمثال . ثم ان كل ما لمحته منها كان جليلا رائعا . وادركت عن بعد انها شقراء ، ورايت شعاعا من الشمس يخترق أوراق الزيزفون ويقع على شعرها فيجعل منه اكليلا من الذهب . وعندما دانيتها لحظت رقة شعرها الذى يضاهى تلك الخيوط الحريرية التى تنتزعها من معطف العذراء أولى نسمات الخريف ، وعنقها الذى ربما كان أطول قليلا من المعتاد ، ويتميز طوله بالاناقة أو الجمال ، عنق مستدير ، يتيح للراس ان يستند على اليد اليمنى ، بينما اعتمد مرفقها على ظهر المقعد وتدلت ذراعها اليسرى الى جانبها . وامسكت انامها المشـوقة بوردة

بيضاء . وكان عنقها المستدير كعنق البجعة ويدها المثنية وذراعها المتدلية ، بيضاء كرخام « باروس » خالية من العروق السطحية والنبض الداخلي ، وكانت الوردة التي بدأت تذبل ازهى لونا واكثر حيوية من اليد التي تمسكها . ونظرت اليها برهة ، وكلما امعنت النظر ، خيل الي ان ما اراه ليس بكائن حي ، حتى لقد شككت في احتمال تحركها اذا ما كلمتها . ولقد انفتح فمي ثم انقفل مرتين او ثلاثا دون أن انطق حرفا واحدا . واخيرا استقر عزمي فقلت لها : « سيدتي ! » ، فارتجفت واستدارت ، ونظرت الى دهشة كمن يصحو من حلم ويجمع شتات أفكاره . وكان في عينيها السوداوين الواسعتين المثبتتين على وجهي تعبير غريب .

ومرت بنا بضع ثوان ، هي تتاملني وانا افحصها . انها امراة في الثانية او الثالثة والثلاثين من العمر ، كانت ولاشك ذات جمال رائع قبل ان يضمر خداها ويشحب لونها ، ومع ذلك وجدتها رائعة الجمال بوجهها الصدفي اللون الذي يماثل تماما لون يديها من حيث تجرده من صفات البشرة الحية ، وعينيها اللتين تشبهان الكهرمان الاسود وشفتيها الشبيهتين بالمرجان .

— سيدتي ... يقول السيد ليدرو ان باستطاعتي أن أقدم لك نفسي ، فانا مؤلف « هنري الثالث » و« كريستين » و« انتوني » ، فتتناولي ذراعي وتاتي معي الى غرفة الطعام .

— معذرة ياسيدي ، انت هنا منذ لحظة ، أليس كذلك ؟ لقد شعرت بقدومك ولكنني لم استطع ان التفت اليك . وهذا امر يحدث لي احيانا عندما أنظر الى بعض النواحي . لقد افسد صوتك السحر الذي كنت فيه . والآن هات ذراعك ولنذهب .

ونهضت ، ولفت ذراعها بذراعي . ولم اشعر تقريبا بثقل ذراعها ، مع انها لم تبد اية محاولة لتخفيف ذراعها ، وكأنها ظل يسير بجواري . ووصلنا الى قاعة الطعام دون ان ينطق احدنا بلفظ واحد . وكان هناك محلان محجوزان حول المائدة ، احدهما لها الى يمين السيد ليدرو والثاني لي انا في مواجهتها .

صفعة شارلوت كورداي



(٥) صفعة شارلوت كورداى

كان لهذه المنضدة طابعها الخاص ، كسائر الاشياء في منزل السيد ليدرو ، فهي على شكل حدوة الحصان ، تستند الى نوافذ الحديقة ، تاركة ثلاثة ارباع الغرفة الفسيحة خالية للوازم المائدة ، وتتسع هذه المنضدة لعشرين شخصا يجلسون اليها مرتاحين ، ويقدم عليها الطعام ، سواء أجلس اليها واحد أم اثنان أم اربعة أم عشرة أم عشرون من مدعوى السيد ليدرو ، أم جلس اليها السيد ليدرو وحده . وكنا هذا اليوم ستة فقط ، شغلنا حوالي ثلث المائدة . وكانت قائمة الطعام واحدة لايام الخميس ، اذ يرى السيد ليدرو أن مدعويه يستطيعون أن ياكلوا أشياء أخرى في باقي الايام سواء في بيوتهم أم في بيوت من يدعونهم . وعلى هذا كان من المؤكد أن يجد الانسان على مائدة السيد ليدرو كل خميس أصناف الحساء ولحم البقر والدجاج ، مع الطرخون (١) ، وفخذا محمرا ، وفاصوليا ، وسلاطة . وكان عدد الدجاج يزيد تبعا لحاجة المدعوين . ويجلس السيد ليدرو دائما على طرف المنضدة وظهره الى الحديقة ووجهه نحو الفناء سواء كان معه قليل من المدعوين أم كثير ، يجلس على كرسي كبير ذي مساند ، في مكان واحد لم يتغير منذ عشر سنين ، ويتناول من يد بستانيه « انطوان » الذى أصبح وقتئذ المتر « جاك » خادمه الخاص ، بالاضافة الى النبيذ العادى ، بعض زجاجات من النبيذ الأحمر المعتق الممتاز ، يقدمها له البستاني بوقار وخشوع ، فيفتحها ويقدمها لضيوفه بنفس الوقار والخشوع .

---

(١) بقلة معمرة .. تزرع لرائحة أوراقها التى تؤكل وهى خضراء مع الطعام
المترجم

كان النـاس منـذ ثمانية عشر عاما يؤمنون ببعض الاشـياء ، ولـكنهم بعد عشر سنوات لن يؤمنوا بشيء ، حتى بالنبيذ المعتق.

وبعد أن فرغنا من طعام الغداء ، انتقلنـا الى قاعة الجلوس . وقد مرت فترة الغداء كغيرها من فترات الغداء في امتداح الطعام واطراء النبيذ .

اما المرأة الصغيرة فانها لم تأكل سوى بعض فتات الخبز ، ولم تشرب الا كوبا من المـاء ، ولم تنطق لفظا واحدا . لقد ذكرتني بغول الف ليلة وليلة الذى جلس الى المـائدة مع الآخرين فلم يأكل الا حبـات من الأرز التقطها بالمسواك . انتقلنا اذن كالمعتاد بعـد تناول الغداء الى قاعة الجلوس . وكان من الطبيعي ان أقدم ذراعي الى مدعوتنا الصامتة ، فقطعت نصف الطريق بيني وبينها لتتناول ذراعي وكان لحركاتها نفس الليونة وللفتاتها نفس الاناقة ، لايكاد الانسان يشعر باطرافها . وسرت بها الى اريكة تمددت عليها .

وفي أثناء تناولنا الطعام حضر الى القـاعة شخصـان ، الطبيب ورئيس الشرطة الذى جاء ليحصل على توقيعاتنا على المحضر الذى وقع عليه من قبل جاكمان في السجن . وظهرت بقعة خفيفة من الدم على الورق . ووقعت بدورى ، وقلت وانا اوقع : ما هـذه البقعة ؟ أهي دم المرأة ، أم دم الزوج ؟

رئيس الشرطة : هـذا الدم من الجرح الذى بيد القاتل ، والذى استمر ينزف دون أن يستطيع احد ان يوقفه .

الطبيب : اتعلم ياسيد ليدرو أن ذلك الوحش يصر على أن رأس زوجته قد تـكلم ؟

ليدرو : أترى ذلك الأمر مستحيلا يادكتور ؟

الطبيب : طبعا .

ليدرو : اتظن انه من المستحيل ان تنفتح العين ثانية ؟

الطبيب : مستحيل .

ليدرو : الا تظن ان الدم ، وقد اوقفت سيله طبقة الجبس التي سدت للفور كل العروق والشرايين ، استطاع أن يعيد الحيـاة والشعور في الرأس للحظة ؟

الطبيب : لا اصدق ذلك .

ليدرو : حسن . اما انا فاني أصدق .

البيت : وأنا أيضا .

القس مول : وانا كذلك .
الشيفاليه لينوار : وانا ايضا .
وقلت : وانا ايضا .
اما رئيس الشرطة والمراة الشاحبة الوجه فانهما لم يقولا شيئا : فاحدهما لا يهمه الأمر كثيرا بلا شك ، والثانية يهمها الأمر أكثر من اللازم .
الطبيب : آه ! ما دمتم جميعا ضدى فلا بد أنكم على صواب ولكن ما دام احدكم طبيبا ..
ليدرو : ولكنك تعلم يا دكتور انني نصف طبيب .
ــ اذن لابد أنك تعلم انه لا الم حيث لا شعور ، وان الشعور ينعدم تماما عند انفصال العمود الفقرى .
ــ من قال ذلك ؟
ــ المنطق طبعا !
ــ يا له من رد مقنع ! الم يكن المنطق هو الذى اقنع القضاة الذين أدانوا « جاليليو » بأن الشمس هى التي تدور والارض ثابتة لاتتحرك؟ قد يكون المنطق ياعزيزى الطبيب احمق. ألم تجر بنفسك تجارب على رءوس مقطوعة ؟
ــ كلا ، ابدا .
ــ هل قرأت بحوث «سومرنج» ؟ ومحاضر الطبيب «سوى» ، واعتراضات « الشير » ؟
ــ لا ..
ــ اذن فانت تظن ، كما جاء فى تقرير السيد « جيوتان » أن آلته هى اضمن الوسائل لانهاء حياة الانسان، واسرعها واقلها ايلاما!
ــ اعتقد ذلك .
ــ حسن ! انت مخطىء ياصديقى العزيز .
ــ آه ! عجبا !
ــ اسمع يا دكتور ، ما دمت قد استشهدت بالعلم لاثبات رايك، فساحدثك حديث العلم ، وليس فينا ، على ما أظن ، من هو غريب عن هذا الحديث حتى لا يشترك فيه فابدى الطبيب حركة ارتياب .
ــ لا اهمية لذلك ، افهم وحدك ما تشاء .
واقتربنا جميعا من السيد ليدرو . اما انا فقد اصغيت اليه

بانتبـــاه شـــديد ، فان هـــذه المسالة الخاصة بعقوبة الاعدام التى تنفذ بالحبل او الحديد او السـم كانت تشغل ذهنى على الدوام لانها مسالة انسانية . وكنت قد اجريت بعض البحوث فى مختلف الالام التى تسبق انواع الموت المختلفه وتصاحبها وتعقبها .

قال الطبيب بصوت من لا يصدق : هلم . تـكلم .

السيد ليدرو : من السهل ان تثبت لاى انسان عنده فكرة عن تركيب جسمنا وقواه الحيوية ، ان العقوبة البدنية لا تعدم الشعور تماما . وما اشرحه لـكم أيها الطبيب انما يقوم على حقائق وليس على فروض .

ــ الينا بالحقائق .

ــ ها هي ذي : أولا ، ان مركز الشعور هو المخ ، اليـس كذلك؟

ــ فى الغالب .

ــ وفى الامكان ان تتم عمليات الحس والادراك حتى ولو توقفت الدورة الدموية بالمخ او ضعفت او تعطلت جزئيا .

ــ يحتمل .

ــ وعلى هـــذا فما دام مركز القدرة الشعورية فى المخ ، فان الذى توقع به عقوبة الاعدام يظل مدركا لوجوده طالمـــا كان المخ محتفظـــا بقدرته الحيوية .

ــ ما هى الادلة على ذلك ؟

ــ هاهى ذى : يقول « هالر » فى كتابه « عناصر الطبيعة » فى الجزء الرابع صفحة ٣٥ ما يأتى : « فتح رأس مقطوع عينيه ونظر الى نظرة جانبية ، لانى لمست النخاع الشوكى بطرف أصبعى » .

ــ « هالر » ، فايكن ، ولـكن هالر قد يخطىء .

ــ حسن ، لنفرض انه اخطا . اليك غيره ، يقول فيكار فى كتابه « الفنون الفلسفية » صفحة ٢٢١ : « رأيت شفتى رجل مقطوع الراس تتحركان .

ــ حسن ، ولـكن ان تتحرك الشفتان لتتكلما . . .

ــ انتظر ، سنصـــــــل الى ذلك . اليك « سومرنج » ، وهذى مؤلفاته ، يمكنك ان تبحث فيها . يقول « سومرنج » : « اكد لى الـكثيرون من زملائى الاطباء انهم راوا راسا مفصولا من الجســـد يصر أسنانه من الالم » . وانا شخصيا اعتقد انه اذا كان الهواء يمر فى الراس عن طريق الاعضاء الصوتية ففىمقدورالراس المفصول ان يتـكلم .

وواصل السيد ليدرو حديثه وقد شحب وجهه : حسن يا دكتور . لقد كلمنى رأس .

فارتجفنا جميعا . ونهضت السيدة الشاحبة من كرسيها الطويل.

الطبيب : كلمك انت ؟

— نعم أنا ، ستقول انني أيضا مجنون ؟

— عجبا ، ان كنت تقول انه قد كلمك انت نفسك ..

— نعم ، اقول ان الشيء حدث لى انا نفسى . ان ادبك يادكتور يمنعك من أن تقول لى بصراحة انني مجنون ، ولكنك قد تقول ذلك بصوت خفيض ، والنتيجة واحدة على اية حال .

— حسن ، فلنر ، قص علينا ذلك .

— ما أسهل أن تطلب منى ذلك ، ولكن هل تعلم انني لم أرو هذه القصة لأى مخلوق منذ سبعة وثلاثين عاما ، أى منذ حدثت وقائع القصة ؟ أتعلم انني لا أستطيع أن اتمالك شعورى اذا حكيت لكم هذه القصة ، فقد اغمي على عندما كلمنى ذلك الرأس وحدجتنى عيناه بنظرة ثابتة ؟

وهكذا صار الحديث مسليا للغاية ، والموقف دراميا رائعا .

اليبت : هيا تشجع يا ليدرو واحك لنا قصتك .

القس مول : احك أيها الصديق .

الشيفالييه لينوار : تكلم ..

وتمتمت السيدة الشاحبة : سيدى ..

ولم أقل شيئا ، ولكن الرغبة كانت تتلاعب فى عينى .

وقال السيد ليدرو دون أن يرد علينا وكانه يخاطب نفسه : ما أعجب الاحداث حين يؤثر بعضها فى البعض الآخر ! واستدار ناحيتى) أتعرف من انا ؟

— أعرف انك رجل غزير العلم ، ظريف للغاية ، تقدم وجبات فخمة من الطعام ، وانك عمدة فونتناى أوروز .

فابتسم السيد ليدرو وشكرنى بايماءة من رأسه ، وقال :

— اقصد أصلى وأسرتى ؟

— انني ياسيدى أجهل أصلك ولا أعرف أسرتك ..

— حسن ، اسمعوا ، ساخبركم بكل ذلك ، وربما تأتى بعد ذلك القصة التى تريدون سماعها ولا أجرؤ الآن على روايتها . فاذا حكيت لكم القصة ، فعليكم أن تسمعوها ، والا فلا تطلبوها منى

مرة ثانية ، فان قواى تكون قد خانتني .

فجلس كل منا في مكانه وتهيأ للاستماع . وكانت القاعة ملائمة كل الملاءمة لجو القصص والاساطير ، فهي متسعة مظلمة بفضل الستائر السميكة ، وزوال ضوء النهار . وقد غمرت الظلمة انحاءها بينما احتفظت المواضع المواجهة للابواب والنوافذ ببقايا خفيفة من النور . وفي احد الاركان المظلمة جلست السيدة الشاحبة وقد اختفى ثوبها الاسود تماما في الظلام ، ولم يبد منها سوى راسها الابيض الساكن المتكىء على وسادة الاريكة . واستهل السيد ليدرو حديثه قائلا :

ــ انا ابن « كوميس » المشهور طبيب الملك والملكة . كان ابي الذي جعله لقبه المضحك في زمرة المشعوذين عالما ممتازا من علماء مدارس فولتا وجالفاني ومسمر. واول من اشتغل في فرنسا بفنون خيال الظل والكهرباء ، والقى دروسا في الرياضة والطبيعة بالبلاط الملكي . اما مارى انطوانيت المسكينة التي رايتها مرارا ، وامسكت بيدى اكثر من مرة وقبلتني عند وصولها الى فرنسا ، حيث كنت طفلا ، فانها كانت مغرمة بي . وقد صرح جوزيف الثاني (١) عند مروره بفرنسا عام ١٧٧٧ بانه لم ير في حياته انسانا اغرب من كوميس . ومع كل هذا كان ابي منهمكا بتعليم اخي وتعليمي ، وقد اطلعنا على مبادىء علوم السحر والتنجيم ، ومجموعة من المعلومات المغناطيسية والكهربية والفيزيائية التي اصبحت الآن من المعلومات الشائعة ، ولكنها كانت في ذلك العهد من الاسرار التي لايعرفها الا القليلون . وتسبب لقب «فيزيائي الملك» في سجن ابي عام ٩٣ ، ولكنني تمكنت بفضل ما كان بيني وبين جماعة « لامونتانى » من أواصر الصداقة أن اتوصل الى اخلاء سبيله . وعلى اثر ذلك احتجب والدى في هذا المنزل الذي نحن فيه الآن ومات فيه عام ١٨٠٧ وله من العمر ستة وسبعون عاما . ولنعد الى موضوعي . تكلمت عن صداقتي لاعضاء جماعة لامونتانى ، وكنت في الواقع على علاقة وثيقة بدانتون وكاميى دى مولان ، واعرف مارات كطبيب اكثر مني كصديق ، ونتج عن علاقتي به ، على قصر عهدها ان صح عزمي يوم اقتياد المدموازيل دى كورداى الى المقصلة على ان اشهد تنفيذ حكم الاعدام فيها .

(١) امبراطور بوهيميا وهنغاريا « ١٧٦٥ ــ ١٧٩٠ » ــ المترجم

وهنا قاطعته قائلا : كنت على وشك ان اؤيدك فى مناقشتك مع الدكتور روبير فى موضوع استمرار الحياة بأن اذكر الحقيقة التى سجلها التاريخ عن شارلوت دى كورداى .
فقاطعنى السيد ليدرو بدوره قائلا : سنصل الى هذه النقطة .. دعنى اتكلم . لقد شهدت هذا الحدث ، ولذلك ارجو ان تصدقوا ما سأقوله لكم . منذ الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم ، اخذت مكانى بالقرب من تمثال الحرية ، وكان يوما دافئا ، من أيام شهر يولية ، والجو ثقيلا ، والسماء ملبدة بالغيوم تنذر بعاصفة . وفى الساعة الرابعة هبت العاصفة ، وقيل انه فى هذه اللحظة صعدت شارلوت الى عربة السجن ، وكان ثمة مصور شاب يقوم بعمل لوحة لها ، ويظهر ان الموت الغيور لم يرد أن تترك الشابة الصغيرة أى شىء بعدها ، حتى صورتها .. فى هذه اللحظة كانت صورة وجهها قد ظهرت على لوحة الرسام . والغريب انه فى لحظة دخول الجلاد فى غرفة السجن ، كان المصور يرسم ذلك الجزء من العنق الذى جزه سلاح الجيوتين فيما بعد .

لمع البرق وهطل المطر وزمجر الرعد ، ولم يكن كل هذا بقادر على تشتيت جموع الرعاع الفضوليين الذين امتلأت بهم الارصفة والكبارى والميادين ، وغطت همهمة من فى الارض ضجيج السماء . وكنت ترى النسوة المقببات « بلاعقات الجيوتين » يتبعنها باللعنات . وسمعت هذا الهدير يقترب منى وكأنه هدير الشلالات ، وهاج الشعب وماج قبل أن يظهر من الموكب اى شىء . واخيرا ظهرت العربة كالسفينة المشئومة تشق طريقها وسط أمواج الشعب ، واستطعت أن أتبين المحكوم عليها، ولم أكن أعرفها ، ولم أرها من قبل . كانت فتاة جميلة فى السابعة والعشرين ، ذات عينين نجلاوين وانف كامل الاوصاف ، وشفتين بديعتين ، واقفة مرفوعة الراس ، لا تكبرا على هذا الحشد ، بل لأن يديها المشدودتين خلف ظهرها اجبرتاها على رفع راسها . وانقطع المطر ، ولكنها كانت قد تحملت المطر ثلاثة ارباع الطريق ، فرسم الماء الذى سال على ثوبها الصوفى المبتل خطوط جسدها الجميل ، وكأنها خارجة من الحمام . وأضفى عليها القميص الاحمر الذى ألبسها الجلاد اياه مظهرا عجيبا ، كما اضفى على وجهها الأبى النحى جلالا مشئوما . وحينما وصلت الى الميدان انقطع المطر وانبثق شعاع

من الشمس من بين غمامتين وانعكس على شعرها فجعله يسطع كهالة من نور . واقسم انه رغم ان الموت كان يتعقب هـذه الفتـاة ، وهو شيء فظيع حتى ولو كان قصاصا للانسانية ، ورغم انى اكره هـذا الموت ، فانى لم أعرف ما اذا كان ما أراه أمامى تأليها وتمجيدا او اعداما . ولمـا ابصرت الفتـاة آلة الاعدام شحب وجهها ، واشتد هـذا الشحوب ، وخاصـة بالنسـبة الى القميص الاحمر الذى كان يكسوها حتى عنقها ، ولـكنها جاهدت بسرعة حتى استطاعت ان تواجه الآلة وتنظر اليها باسمة .

وتوقفت العربة ، وقفزت شـارلوت الى الارض دون أن تسمح لأحد بأن يسـاعدها ، ثم ارتقت درجات المقصلة التى اصبحت زلقة بفعل المطر المنهمر ، مسرعة بقدر ما سمح لها قميصـها الطويل المتدلى خلفها ويداها المغلولتان . وشحب وجهها ثانية عندما وضع الجلاد يده على كتفها لينزع المنديل الذى يغطى عنقها ، ولـكنها فى اللحظة نفسها اشرقت بابتسامة أخيرة تتحدى هـذا الشحوب ، وبحركة يشوبها شيء من المرح وضعت رأسـها فى فتحة المقصلة المبشعة ، دون أن يقسرها أحد على ذلك . وهوى السكين الباتر ، وانفصل الرأس عن الجسد وسقط على الارض وتدحرج . وحدث عندئذ ، واسمع هـذا جيـدا أيها الطبيب ، وأنت أيها الشاعر ، حدث عندئذ أن تقدم أحد مساعدى الجلاد ويدعى « لجروس » فامسك الرأس من الشعر وصفع الوجه ، بدافع من تملق خسيس للجمع المحتشد . حسن ! اؤكد لـكم ان الرأس قد احمر على اثر هذه الصفعة . لقد رأيت الرأس كله ، لا الخد فحسب ، أتسمعون؟ ليس الخد المصفوع وحده ولكن الخدين .. احمرا بدرجة واحدة ، لأن الاحساس كان ولم يزل حيـا فى هـذا الرأس ، فغضب لهذه الاهانة الغاشمة . وشهـد النـاس هـذا الاحمرار وانحازوا الى جانب الميتة ضد الحى ، الى جانب الضحية ضـد الجلاد ، ونادوا بالثأر ضـد هـذه الدناءة فى نفس الزمان والمكان . وفى نفس الزمان والمكان سلموا الشقى الى رجال الشرطة فاقتـادوه الى السجن . انتظر (ووجه السيد ليدرو خطابه الى الطبيب الذى أراد ان يتكلم) انتظر ، ليس هـذا كل شيء . أردت أن أعرف الباعث الذى دفع هـذا الرجل الى ارتكاب عمله الدنيء ، فاستقصيت عن المكان الموجود به ، وطلبت اذنا بزيارته فى الدير الذى سجن فيه ،

وحصلت على الاذن ومضيت لزيارته . وكانت محكمة الثورة قد حكمت بحبسه ثلاثة اشهر . ولم يفهم هو كيف يصدر عليه مثل هذا الحكم من اجل عمل طبيعى كالذي اتاه . وسالته عما دفعه الى هذا العمل فقال : « ياله من سؤال ! اننى من انصار مارات (١) ، وقد نفذت فيها حكم القانون ، ثم اردت ان أعاقبها بعد ذلك لحسابي الخاص ؟ » .

— ولكن ألا تعلم أن الاعتداء على الموتى جريمة أخرى ؟

فحدجنى لجروس بنظرة ثابتة وقال : « آه ! هذا ! اتظن أن هؤلاء الناس قد ماتوا حين فصلت المقصلة رءوسهم ! » .

— بلا شك ..

— حسن ، يبدو أنك لم تنظر الى السلة والرءوس بداخلها ، ولم ترهم وهم يديرون أعينهم ويصرون على أسنانهم خمس دقائق بعد التنفيذ . اننا نضطر الى تغيير السلة كل ثلاثة اشهر لأنهم يقرضون قاعها بأسنانهم . تلك الرءوس الارستقراطية لا تريد أن تموت ولن ادهش اذا سمعت احدها يصيح ذات يوم « يحيا الملك ! » .

وعرفت وقتئذ كل ما اردت ان أعرفه ، وخرجت تلح على فكرة واحدة : ان هذه الرءوس تعيش فى الواقع فترة من الزمن بعد فصلها . وصح عزمي على أن استوثق من ذلك بنفسي .

---

(١) مارات من زعماء الثورة ، طعنته شارلوت كورداى بخنجر فى حمام لتثأر كما قالت — لضروب الأذى التى انزلها بالصغار « الجيروند » واعدمت بسبب ذلك — المترجم

سولانج



(٦) سولانج

بينما كان السيد ليدرو يواصل حديثه ، اقبل الليل ، وبدا الموجودون بالقاعة كالاشباح ، اشباح صامتة جامدة ، تخشى أن يكف السيد ليدرو عن حديثه ولا يتم قصته . وكنا ندرك أن وراء القصة الرهيبة قصة أخرى افظع منها ، ولذا لم تصدر منا همسة واحدة ، ولم يفتح فمه سوى الطبيب . ولكنني امسكت يده لامنعه من الكلام فسكت . وبعد ثوان واصل السيد ليدرو حديثه : خرجت من الدير ، وبينما أنا أجتاز ميدان « تاران » متجها الى شارع « تورون » حيث اقطن ، سمعت صوت امراة تستغيث . ولم يكن في الامر جريمة ومجرمون ، فالساعة لم تكن قد تجاوزت العاشرة مساء ، فركضت نحو ركن الميدان الذى صدر منه الصوت ، ورايت في ضوء القمر الساطع خلال سحابة امراة تناضل وسط دورية من الشرطة ، وراتنى المراة وعرفت من ردائى انني لست من عامة الشعب فاندفعت نحوى صائحة : « أيه ، قفوا ، انظروا ها هو السيد البير الذى أعرفه ، يخبركم انني ابنة الأم « لوديو الغسالة » ، وفي الوقت نفسه امسكت المراة المسكينة بذراعي وهي ترتعد شاحبة الوجه ، وتعلقت بي كما يتعلق الغريق بلوحة خشبية .

ــ قد تكونين ابنة الأم لوديو ، ولكن ليس معك بطاقة شخصية ايتها البنت الجميلة ، فسيرى معنا الى مركز الحرس .

فضغطت المراة الصغيرة على ذراعي ، وشعرت بما في تلك الضغطة من رعب وتوسل ، وفهمت . ولما كانت قد نادتني باول اسم خطر لها فقد ناديتها انا ايضا باول اسم خطر لى :

ــ كيف ! هذى انت يا سولانج المسكينة ! ماذا حدث لك ؟

ـ اترون ايها السادة ؟

ـ يبدو أنه باستطاعتك ان تقولي « المواطنين » .

ـ اسمع ياسيدي الجاويش ، ليس الخطا خطئي اذا كنت اتكلم بهذه اللهجة ، فامي كانت تعمل بالاوساط الراقية ، فعودتني ان اكون مهذبة ، وتعلقت بي هذه العادة السيئة ـ واعترف بذلك ـ وان اسلك سلوك الارستقراطيين . ولكن ما العمل ايها الجاويش ، انني لا استطيع التخلص من هذه العادة .

كان في هذا الرد المرتجف سخرية غير ملموسة ، ادركتها انا وحدي ، وتساءلت من تكون هذه المراة ؟ وكان يستحيل الاجابة عن هذا السؤال ، كنت متيقنا فقط انها ليست ابنة غسالة .

ـ ما حدث لي ، ايها المواطن البير ؟ اليك ما حدث لي . تصور انني ذهبت لاعيد بعض البياضات فوجدت أن سيدة المنزل قد خرجت فانتظرت عودتها لاقبض اجري . يا للزمن ! كل انسان يحتاج اليوم الى نقود . واقبل الليل . وكنت اظن انني ساعود قبل ان ينقضي النهار ولذا لم آخذ معي بطاقتي الشخصية . ثم وجدت نفسي وسط هؤلاء السادة ـ عفوا ـ أقصد المواطنين ، فسالوني عن بطاقتي ، فقلت لهم ليست معي بطاقة ، فأرادوا اقتيادي الى مركز الحرس ، فصحت ، واسرعت أنت الي ، وانت من معارفي ، وعندئذ اطمأن قلبي وقلت لنفسي : ما دام السيد البير يعرف ان اسمي سولانج وانني ابنة الأم لوديو فانه سيضمنني . أليس كذلك ياسيد البير ؟

ـ طبعا ، أضمنك ، على مسئوليتي .

فقال رئيس الداورية : حسن ، ومن يضمنك عندي ايها السيد ؟

ـ دانتون ، ايكفيك ؟ اهو مواطن صالح ؟

ـ آه ! اذا ضمنك دانتون فليس لدي ما اقوله .

ـ حسن ، اليوم اجتماع في نادي الكوردوليه ، هلم بنا الى هناك .

ـ هيا بنا ، هيا ايها المواطنون ، الى الأمام سر !

وكان نادي الكوردوليه في دير الفرنسيسكان القديم بشارع الاوبسرفانس ، فوصلنا اليه في لحظة ، وامام باب النادي ، نزعت قصاصة ورق من محفظتي وكتبت عليها بالقلم الرصاص بضع كلمات ، وناولتها للجاويش ورجوته أن يوصلها الى دانتون ، وبقينا نحن في حراسة الاونباشي والدورية . ودخل الجاويش النادي ثم عاد ومعه

دانتون الذى قال :

ـ كيف ؟ أنت المقبوض عليه ؟ أنت ، صديقي وصديق كاميى ! وانت من افضـــل انصار الجمهورية ! هيا ايها الجاويش (والتفت الى رئيس الشرطة) اننى كفيله عندك ، ايكفيك هذا ؟

فأجاب الجاويش العنيد : كفيله ، ولـكن هل تتكفل عنها هى ؟

ـ عنها ؟ عمن تتكلم ؟

ـ يا الهى ، عن هذه المراة .

ـ عنه وعنها ، وكل من معه ، ايكفيك هذا ؟

ـ نعم ، أنا مسرور ، خاصة وقد رايتك .

ـ آه ! بالله عليك ! لك هذا السرور بلا مقابل ، انظر الى كما تشاء ما دمت معك هنا .

ـ شكرا ، واصـــــل دفاعك عن مصالح الشعب ، واطمئن ، فسيحفظ لك الشعب هذا الجميل .

ـ آه ! نعم ! هذا ما عزمت عليه .

ـ اسمح لى ان أصافحك .

ـ ولم لا ؟

واعطاه دانتون يده .

فصاح الجاويش : يحيا دانتون !

وردد افراد الداورية : يحيا دانتون !

وابتعدوا بقيادة رئيسهم الذى ما ان سار عشرة خطوات حتى التفت ولوح بقبعته الحمراء وصاح ثانية صيحة رددها رجاله : يحيا دانتون ! وكنت على وشك أن اشـكر دانتون حين سمعنـا أصواتا آتية من داخل النادى تناديه :

دانتون ! دانتون ! الى المنبر ! فقـال لى : « عفوا ياعزيزى ، انسمع ؟ صافحنى ودعنى ادخـل . انى أعطيت الجاويش يدى اليمنى فاليك اليسرى ، من يدرى ، فلعل المواطن الصالح مصاب بالجرب ! » . واســتدار قائلا بصوته الجهورى الذى كان يثير عواصف الشارع ويهدئها : « هانذا ، انتظرونى » .

واندفع الى داخل النادى . وبقيت وحدى عند البـــاب مع رفيقتى المجهولة .

ـ والآن ياسيدتى ، الى اين اوصلك ؟ انا فى خدمتك .

فقالت متضاحكة : يا الهى ! عند الأم ليديو ، انت تعلم حق

المعلم انها أمى .

– ولكن اين تقطن الأم ليديو ؟

– بشارع فيرو رقم ٢٤ .

– هيا بنا الى الأم ليديو ، بشارع فيرو رقم ٢٤ .

وقطعنا كل الطريق دون ان يجرى بيننا أى حديث ، ولكنى استطعت ان افحصها فى هدوء فى ضوء القمر الساطع فى كامل بهائه . وكانت فتاة جذابة فى العشرين الى الثانية والعشرين ، شقراء ، بعينين زرقاوين واسعتين، يغلب فيهما المرح على الحزن ، وأنف دقيق مستقيم ، وشفتين ساحرتين ضاحكتين ، واسنان كاللآلىء ، ويدى ملكة ، وقدمى طفل . ومع كل هذا فانها تحتفظ تحت الرداء الشعبى المتواضع ، رداء ابنة الأم ليديو ، بذلك المظهر الارستقراطى الذى اثار بالفعل شكوك الجاويش الطيب ودوريته المشاكسة .

ولما وصلنا الى الباب توقفنا ونظر كل منا الى الآخر برهة فى صمت . وابتسمت مجهولتى الحسناء وقالت :

– حسن ، ماذا تريد منى ياسيدى العزيز البير ؟

– اريد ان اقول لك يا عزيزتى الآنسة سولانج ، اننا لم نكن لنلتقى ما دمنا سنفترق بهذه السرعة .

– عفوا مليون مرة ، بل أرى على العكس من ذلك ان هذا اللقاء يستحق كل هذا العناء ، اذ لو لم أقابلك لاقتادنى الشرطة الى مركز الحرس ولاكتشفوا هناك اننى لست ابنة الأم ليديو ، واننى ارستقراطية ، وكان من المحتمل ان تقطع رقبتى .

– تعترفين اذن انك ارستقراطية ؟

– لا أعترف بشىء .

– هيا ، قولى لى اسمك على الأقل .

– سولانج .

– تعرفين جيدا ان هذا الاسم الذى ارتجلته ليس اسمك .

– لا أهمية لذلك ! فأنا احب ان احتفظ به من اجلك على الاقل .

– ما الداعى الى احتفاظك به من اجلى ، ما دمت لن أراك ثانية ؟

– لا أقول هذا . انما أقول فقط اننا اذا كنا سنتقابل ثانية فلا فائدة من ان تعرف اسمى الحقيقى أو ان أعرف اسمك الحقيقى . لقد أديتك باسم البير . فاحتفظ بهذا الاسم . كما

احتفظ انا باسم سولانج .
ـ حسن ! فليكن ، ولكن اسمعى يا سولانج ..
ـ أنا مصغية اليك يا البير ..
ـ انت ارستقراطية . اتعترفين بذلك ؟
ـ ان لم اعترف فسوف تخمن انت ذلك ، اليس كذلك ؟ وعليه فان اعترافى يفقد الكثير من قيمته .
ـ وهم يطاردونك من اجل صفتك الارستقراطية هذه ؟
ـ شيء كهذا .
ـ وتختفين هربا من هذه المطاردة ؟
ـ فى شارع فيرو رقم ٢٤ عند الأم ليديو التي كان زوجها حوذيا عند أبى ـ وهكذا ترى انى لااخفى عنك سرا .
ـ وأبوك ؟
ـ انا لا اخفى عنك اسرارى يا عزيزى السيد البير ، أما اسرار ابى فلا تخصنى ، وأبى مختبىء بدوره فى انتظار سنوح الفرصة للهجرة ، هذا كل ما استطيع أن أقوله لك .
ـ وانت ، ماذا تنوين عمله ؟
ـ أن ارحل مع أبى اذا أمكن ، والا فانى أتركه يرحل وحده ثم الحق به بعد ذلك .
ـ وعندما قبض عليك هذا المساء، هل كنت عائدة من زيارة أبيك؟
ـ نعم كنت عائدة من عنده .
ـ استمعى الى يا عزيزتى سولانج .
ـ انا مستمعة اليك .
ـ لقد رأيت ما حدث هذا المساء !
ـ نعم ، وقد اعطانى ذلك فكرة عن مبلغ نفوذك .
ـ اوه ! ليس نفوذى بالشيء الكبير لسوء الحظ ، ومع ذلك فلى بعض الاصدقاء .
ـ عرفت أحدهم هذا المساء .
ـ وهو ليس من الشخصيات الضعيفة فى هذا الوقت .
ـ أتريد أن تستخدم نفوذه فى مساعدة والدى على الهرب ؟
ـ لا ، اننى أحتفظ بنفوذه من اجلك انت .
ـ ومن أجل أبى ؟
ـ عندى وسيلة أخرى لأبيك .

هامسكت سولانج بيدى ونظرت الى بلوفا وصاحت :
ــ عندك وسيلة أخرى ؟
ــ اذا انقذت ابيك ، هل تذكرينني بالخير ؟
ــ اوه ! سأظل عارفة لجميلك طول حياتي .

نطقت بهذه الكلمات بنغمة ساحرة ملؤها الاعتراف المسبق بالجميل . ثم نظرت الى وقالت متوسلة :
ــ ولكن ، أيكفيك هذا ؟
ــ نعم .
ــ اذن فانا لم اخطىء ، انت نبيل النفس . أشكرك باسم أبى واسمي ، وحتى اذا لم توفق فى مسعاك فانى لن أكون أقل اعترافا لك بالفضل .
ــ متى نتقابل ثانية يا سولانج ؟
ــ متى تريد رؤيتى ؟
ــ املى ان استطيع غدا ان اخبرك بامر سار .
ــ حسن ، لنتقابل غدا .
ــ أين ؟
ــ هنا ، ان شئت .
ــ هنا فى الشارع ؟
ــ ايه ، يا الهى ! ترى ان هذا آمن مكان . فمنذ نصف ساعة ونحن نتحدث امام هذا الباب ولم يمر بنا احد .
ــ لم لا اصعد عندك ، أو لم لا تأتى عندى ؟
ــ لأنك اذا دخلت عندى عرضت الناس الطيبين الذين آوونى فى دارهم للخطر ، واذا ذهبت عندك عرضت أنت للخطر .

ــ أوه ، حسن! فليكن، سآخذ بطاقة احدى قريباتى وأعطيها لك.
ــ نعم ، حتى تعدم قريبتك على المقصلة اذا قبض على انا .
ــ صدقت ، سأحضر لك بطاقة باسم سولانج .
ــ عظيم ! سترى ان اسم سولانج سيكون فى النهاية اسمى الحقيقى الوحيد .
ــ فى اية ساعة نتقابل ؟
ــ فى نفس الوقت الذى تقابلنا فيه اليوم ، فى العاشرة اذا شئت
ــ فليكن ، فى العاشرة .
ــ وكيف نتقابل ؟

ـ اوه ! لا صعوبة فى ذلك ، فى العاشرة الا خمس دقائق تقف انت بالباب ، وفى العاشرة تماما ، انزل أنا .

ـ اذن ، الى العاشرة غدا يا عزيزتى سولانج .

ـ العاشرة غدا يا عزيزى البير .

واردت ان اقبل يدها ، ولكنها قدمت لى جبينها .

وفى الساعة التاسعة والنصف من مساء اليوم التالى كنت فى الشارع ، وفى العاشرة فتحت سولانج الباب . لقد بادر كل منا الى اللقاء قبل الموعد . وتقدمت منها خطوة واحدة .

قالت باسمة : ارى ان عندك اخبارا سارة .

ـ للغاية ، اليك اولا بطاقتك .

ـ ابى اولا .

ـ سينجو ابوك اذا شاء .

ـ تقول اذا شاء ، فماذا يجب عليه ان يعمل ؟

ـ أن يثق بى .

ـ هذا شيء قد تم .

ـ ارايته ؟

ـ نعم .

ـ لقد عرضت نفسك للخطر .

ـ وما العمل ؟ يجب ان افعل ذلك ، والله معى .

ـ اقلت لأبيك كل شيء ؟

ـ قلت له إنك انقذت حياتي بالامس ، وانك قد تنقذ حياته غدا .

ـ غدا ، نعم غدا أنقذ حياته اذا أراد .

ـ كيف ذلك ؟ قل ، تكلم . يالها من مقابلة مدهشة هذه التي جرت لى اذا نجح كل هذا التدبير !

قلت فى تردد : ولكن ...

ـ حسن !

ـ لايمكنك ابدا ان ترحلى معه .

ـ الم اقل لك اننى قد عقدت العزم على ذلك ؟

ـ ومن جهة اخرى فانى على ثقة من ان آتيك فيما بعد بجواز مرور .

ـ لنتكلم اولا عن ابى ، ثم نتكلم فيما بعد عن نفسي .

ـ حسن ، قلت لك ان لى أصدقاء ، اليس كذلك ؟

ـ نعم .
ـ ذهبت اليوم لرؤية أحدهم .
ـ وبعد ؟
ـ هو رجل تعرفين اسمه ، واسمه آية على الشجاعة والشرف والاخلاص .
ـ وهذا الاسم هو ...
ـ مارسو .
ـ الجنرال مارسو ؟
ـ تماما .
ـ صدقت ، اذا كان قد وعد بشيء فسوف يبر بوعده .
ـ حسن ! لقد وعد .
ـ يا الهي ! كم أنا سعيدة ! قل بماذا وعد .
ـ وعد أن يخدمنا .
ـ كيف ذلك ؟
ـ آه ! بطريقة بسيطة للغاية ؛ لقد عينه كليبر قائدا عاما لجيش الغرب ، وسيرحل فى مساء الغد .
ـ مساء الغد ؟ لن يكون أمامنا اذن الوقت الكافى لاعداد اى شيء
ـ ليس لدينا ما نعده .
ـ لا أفهم .
ـ سيأخذ معه والدك .
ـ أبى !
ـ نعم ، بصفة سكرتير .. وعند وصولهما الى « فاندى » يتعهد والدك لمارسو بألا يحارب ضد فرنسا ، وفى غضون الليل يدخل أحد معسكرات فاندى . ومنه يرحل الى انجلترا . وحين يستقر فى لندن يبعث اليك بأخباره . وفيما بعد أزودك بجواز مرور وتلحقين به فى لندن .

فصاحت سولانج : غدا ! سيرحل ابى غدا !..
ـ ولكن ليس لدينا وقت نضيعه .
ـ لم يخطر ابى بالموضوع .
ـ أخطريه .
ـ هذا المساء ؟
ـ هذا المساء ..

ـ وكيف أخطره فى مثل هذه الساعة ؟
ـ معك بطاقة ، واليك ذراعي .
ـ صدقت ، اين بطاقتي !
وأعطيتها البطاقة فوضعتها فى صدرها .
ـ والآن هات ذراعك .

وأعطيتها ذراعي وسرنا حتى ميـــدان تاران حيث تقابلنا بالامس فقالت لي : « انتظرني هنا » . فامتثلت وانتظرت . واختفت في ركن فندق « ماتينيون » القديم ، وبعد ربع ساعة ظهرت وقالت : تعال ، يريد ابى أن يراك ويشكرك . وأمسكت ثانية بذراعي وسارت بي الى شارع « سان جوييوم » أمام فندق « مورتمار » ، وهناك تناولت مفتاحا من جيبها وفتحت بابا صغيرا خفيا ، واخذتني من يدى وسارت بى حتى الطابق الثاني وقرعت الباب بطريقة خاصة. وفتح الباب رجل في الثامنة والاربعين الى الخمسين ، يرتدى ثوب عامل يزاول حرفة تجليد الـكتب ، ولـكنه لم يكد يفوه بعبارات الشكر الاولى حتى عرفت فيه نبيلا عريقا .

قال لي : سيدى ، لقد ارسلتك الينا العناية الالهية .. أحقـا تستطيع أن تنقذني ، بل وتريد ذلك ؟

فحكيت له كل شيء ، وكيف ان مارســو تعهد بأن يضمه اليه كسكرتير ، ولم يطلب نظير ذلك سوى ان يعده بالا يحمل ســلاحا ضد فرنسا .

ـ أعدك بذلك بكل اخلاص وارتياح ، وسأجدد الوعد أمامه .
ـ أشكرك باسمه وباسمى .
ـ ولـكن متى يرحل مارسو ؟
ـ غدا .
ـ أمن الضرورى ان اقابله الليلة ؟
ـ وقتما تشاء ، انه ينتظرك فى اى وقت .

فنظر الاب والابنة كل منهما الى الآخر . وقالت ســولانج : « اعتقد يا ابى انه من الحكمة أن تذهب اليه هذا المساء » .
ـ فليكن ، ولـكن اذا قبض على أحد فليس معى بطاقة .
ـ اليك بطاقتى .
ـ وأنت ؟
ـ أوه ! انني معروف .

ــ اين يقطن مارسو ؟
ــ بشارع الجامعة رقم ٤٠ مع اخته الآنسة ديجرافييه مارسو.
ــ هل ترافقنى ؟
ــ سأتبعك من الخلف لأعود بالآنسة بعد أن تدخل .
ــ وكيف يعرف مارسو اننى الرجل الذى كلمته عنه ؟
ــ اعطه هذه الشارة الثلاثية الألوان ، فهى وسيلة التعرف.
ــ وماذا اؤدى لمنقذى ؟
ــ اى تعهد الى بالمحافظة على سلامة ابنتك ، كما عهدت هى الى بامر سلامتك .
ــ هيا بنا .

ولبس قبعته واطفأ الأنوار . ونزلنا فى ضوء شعاع من القمر تسلل من النوافذ الى السلم . وعند الباب أخذ بذراع ابنته وانحرف الى اليمين وسار فى شارع « سان بيير » ثم شارع الجامعة وسرت فى اعقابهما على بعد عشر خطوات . ووصلنا المنزل رقم ٤ دون ان نقابل احدا ، فاقتربت منهما وقلت : هذا من حسن الحظ والآن ، اتريد ان انتظر او اصعد معكما ؟
ــ لا، لاتعرض نفسك للخطر أكثر من ذلك ، انتظر ابنتى هنا.

واستجبت لطلبه ، وقال لى وهو يمد يده : مرة اخرى اشكرك، والوداع ؛ انى لا املك من الكلمات ما أعبر بها عن مشاعرى نحوك وارجو الله ان يساعدنى يوما فى ان اثبت لك مقدار عرفانى بجميلك فاجبته بالضغط على يده . ودخل تتبعه سولانج ، التى ضغطت هى ايضا على يدى قبل أن تدخل . وبعد عشر دقائق فتح الباب ثانية .

قلت لها : حسن ؟
ــ حسن ! ان صديقك هذا اهل لصداقتك ، أقصد انه فى غاية الرقة ، ويعلم اننى أود لو بقيت مع ابى ساعة الرحيل ، فأمدت لى اخته فراشا فى غرفتها . وفى الساعة الثالثة بعد ظهر غد يكون ابى بعيدا من كل خطر . واذا كنت ترى ان عبارات الشكر التى تقدمها لك ابنة تدين لك بسلامة ابيها تستحق أن تكلف خاطرك من اجلها ، فتعال لتلقاها فى العاشرة من مساء الغد ، فى مثل هذا الوقت بشارع فيرو .
ــ اوه ! بالتأكيد ، ساذهب . الم يقل لك والدك شيئا عنى ؟

ـ انه يشكرك من اجل بطاقتك ، وها هي ذي ، ويرجوك ان تلحقني به في أقرب وقت مستطاع. فاجبتها وقد انقبض صدري:
ـ سيتم ذلك عندما تشائين يا سولانج .
ـ يجب على الاقل ان اعلم اين سألحق بأبي . اوه ! انك لم تتخلص مني بعد .
فأخذت يدها وضغطت بها على قلبي ، ولكنها قدمت جبينها كما فعلت بالامس وقالت : الى الغد !

ولما ضغطت بشفتي على جبينها ، كنت اضغط في الوقت نفسه بيدها وصدرها المرتجف وقلبها النابض على قلبي . وعدت الى منزلي منشرح الصدر بدرجة لم اشعر بها من قبل . فهل كان ذلك نتيجة لشعوري بالعمل الطيب الذي قمت به ، او لأني احببت هذه المخلوقة البديعة ؟

ولم ادر انمت أم سهرت ، ولكني اعلم ان كل انغام الطبيعة المتناسقة كانت تصدح في ارجاء نفسي ، وان الليل بدا لي كان ليس له آخر ، والنهار طويل للغاية ، وأعلم انني كنت استحث الوقت ليمر ، ومع ذلك اود ان اوقف سيره حتى لا افقد لحظة واحدة من الايام الباقية في حياتي .
وفي الساعة التاسعة من مساء اليوم التالي كنت في شارع فيرو. وفي التاسعة والنصف ظهرت سولانج واقبلت نحوي والقت بذراعيها حول عنقي وقالت :
ـ لقد نجا ، نجا والدي، وانا مدينة لك بسلامته! اوه!كم احبك!

وبعد خمسة عشر يوما تسلمت سولانج خطابا ينبئها بأن اباها في انجلترا . وفي اليوم التالي احضرت لها جواز مرور فلما تناولته اجهشت بالبكاء وقالت :
ـ انت لا تحبني اذن ؟
ـ احبك اكثر من حياتي ، ولكني وعدت اباك بشرف ، ومن واجبي قبل كل شيء ان افي بوعدي .
ـ اذن انا التي سوف تنقض وعدها . اذا كانت عندك الشجاعة لتركي ارحل يا البير ، فاني لا املك الشجاعة لفراقك .
وا أسفاه ! لقد بقيت .

ألـبير



(٧) ألبير

ومرت لحظة سكون ، كما حدث في المرة الاولى التى قوطع فيها حديث السيد ليدرو ، سكون احترمناه بخشوع أكثر من المرة الاولى ، فقد شعرنا ان القصة تقترب من نهايتها ، القصة التى قال السيد ليدرو انه قد لايستطيع اتمامها ، ولكنه لم يلبث ان واصل حديثه :

مرت ثلاثة اشهر منذ الليلة التى بحثنا فيها مسألة رحيل سولانج . ومنذ تلك الليلة لم نفه بكلمة واحدة عن الفراق. ورغبت سولانج أن تتخذ لها مسكنا في شارع تاران ، فاستاجرته لها باسم سولانج ، اذ لم أعرف لها اسما سواه ، كما لم تعرف هي لي اسما سوى ألبير ، والحقتها بوظيفة مساعدة مدرسة في معهد لصغار الفتيات حتى اضمن بعدها عن شرطة الثورة السرية التى زاد نشاطها عن ذي قبل . وكنا نقضى معا يومى الاحد والخميس من كل اسبوع في هذه الشقة الصغيرة فيشارع تاوان ، ونشاهد من نافذة غرفة النوم الميدان الذى تقابلنا فيه لأول مرة . وكنا نتسلم كل يوم خطابين احدهما باسم سولانج والثانى باسم البير. وكانت هذه الاشهر الثلاثة اسعد شهور حياتي .

وفي هذه الفترة ، لم اتخل عن الفكرة التي خطرت لي عقب حديثي مع مساعد الجلاد ، اذ تمكنت من الحصول على تصريح باجراء بعض التجارب عن ظاهرة استمرار الحياة في المحكوم عليهم بعد اعدامهم . وأثبتت لي هذه التجارب ان الألم يستمر في الجسم بعد الاعدام ، وانه لابد ان يكون فظيعا .

وهنا صاح الطبيب : آه ! هذا ما انكره !

فواصل السيد ليدرو حديثه قائلا : انتظر ، اتنكر ان السكين

بضرب أشد أجزاء الجسم حساسية ، لاحتواء هذا الجزء على مجموعة من الاعصاب ؟ أتنكر ان الرقبة تضم كل أعصاب أعضاء الجسم العليا ، العصب السمبناوي وغيره ، وخاصة النخاع الشوكي الذي هو منبع الاعصاب المتصلة بالاعضاء السفلى ؟ اتنكر ان كسر العمود الفقري أو سحقه يسبب ألما من أفظع الالام التي قد يقاسيها مخلوق بشري ؟

الطبيب : فليكن ، ولكن هذا الألم لا يستمر الا بضع ثوان .

فصاح السيد ليدرو صيحة الواثق بنفسه : اوه : وهذا هو ما انكره بدوري ، ومع ذلك ، وعلى فرض استمرار الألم بضع ثوان ، فانه خلال تلك الثواني يستمر الشعور بالشخصية ، و « الأنا » حيا ، فيسمع الرأس ويبصر ويشم ويدرك انفصال الجسد عنه ، ومن ذا الذي يقول ان قصر مدة الألم يعوض عن فظاعته ؟

– اذن فانت ترى ان قرار الجمعية التأسيسية الذي استبدل المقصلة بالمشنقة كان قرارا خاطئا في حق الانسانية وان الشنق افضل من قطع الرأس ؟

– لاشك في ذلك . هناك كثير من الذين شنقوا أو شنقوا أنفسهم قد عادوا للحياة . حسن ! استطاع هؤلاء ان يصفوا الشعور الذي انتابهم . انه الشعور بسكتة صاعقة ، أي بنوم عميق خال من اي الم ، وأي شعور بالضيق ، فينبثق نوع من اللهب أمام العينين ويتحول شيئا فشيئا الى لون أزرق ثم ظلام حالك يصاحبه اغماء .

وانت يا دكتور تعرف هذا الأمر اكثر من اي انسان آخر ، فاذا ضغطت بأصبعك على مخ انسان في موضع عار من الجمجمة ، لم يشعر هذا الانسان بأي الم ، بل ينام . حسن ! تحدث مثل هذه الظاهرة اذا حدث ضغط على المخ نتيجة لتراكم الدم .

ففي حالة المشنوق يتراكم الدم اولا ، لأنه يدخل المخ عن طريق الشرايين الفقرية التي تمر من قنوات عظام الرقبة ، فلا يعوق مرورها شيء ، فاذا حاول الدم العودة مندفعا في أوردة الرقبة يجد ان طرقه قد سدت بسبب الرباط الذي يشد على الرقبة والعروق .

ـ فليكن ، ولنعد الى التجارب . انني اتلهف الى معرفة قصة الراس الذي تكلم .

وخيل الى انني سمعت آهة تخرج من صدر السيد ليدرو ، غير انه لم يكن في المستطاع رؤية وجهه في ظلام الليل الحالك .

ـ نعم ، لقد استطردت في الواقع .. ولنعد الى تجاربي . ولسوء الحظ لم تكن مادة التجارب لتعوزني . كنا آنئذ في فترة اشتد فيها تنفيذ أحكام الاعدام . فكانت المقصلة ترهق ارواح ثلاثين او اربعين شخصا كل يوم ، فتسيل كمية كبيرة من الدماء في ميدان الثورة حتى اقتضى الأمر شق قناة عمقها ثلاثة أقدام حول قاعدة المقصلة ، وتغطيتها بألواح خشبية . وانقلبت احدى هذه الالواح تحت قدم طفل في الثامنة أو العاشرة من عمره فسقط في الحفرة البشعة وغرق . وحرصت بالتأكيد على الا اخبر سولانج بما كنت اشتغل به وقتي في الايام التي لم اكن اقابلها فيها . ولابد ان اقر بانني شعرت بالاشمئزاز من هذه الحطام البشرية حتى خشيت ان تسبب تجاربي آلاما اخرى تلحق بهؤلاء المنكودين ، ولكني اقنعت نفسي اخيرا ان هذه الدراسات التي كرست نفسي لها كانت لصالح المجتمع كله ، فاذا نجحت في اي وقت كان في اقناع عدد من المشرعين بآرائي ومعتقداتي فقد أوفق في الغاء عقوبة الموت . وكنت اسجل أولا بأول في مفكرة خاصة النتائج التي احصل عليها بتجاربي . وفي نهاية شهرين كنت قد أجريت كل التجارب الممكنة المتعلقة بموضوع استمرار الحياة في الجسم بعد الاعدام . وصح عزمي ان اتقدم بهذه التجارب الى أبعد من هذا الحد ، وعلى قدر المستطاع ، بالاستعانة بالكهرباء بأنواعها . وقد وضعت مقبرة كلامار وكل الجثث والرءوس التي فصلتها المقصلة تحت تصرفي . وحولت كنيسة صغيرة قائمة في احد اركان المقبرة الى معمل خاص لتجاربي .

وكان لي في هذا المعمل جهاز كهربي ، وثلاثة او اربعة من الاجهزة المسماة (المثيرات الكهربية) ..

وكانت الشحنة الرهيبة تصل هناك حوالى الساعة الخامسة ، وتأتي الجثث مكدسة بعضها فوق بعض في العربة بلا نظام

والرءوس كلها في كيس ، فاتناول منها كيفما اتفق راسا او راسين وجسدا او جسدين ، وتلقى باقي الجثث والرءوس في الحفرة العامة . وكانت الجثث والرءوس التي اجرى تجاربي عليها تضم الى شحنة اليوم التالي . وكان اخي يعاونني في اجراء هذه التجارب .

وفي خلال هذه الاتصالات بالموتى ، كان حبي لسولانج ينمو على مر الايام ، وكانت الطفلة المسكينة تحبني بكل ما في قلبها من قوة . وكثيرا ما فكرت ان اتزوجها ، وكثيرا ما تخيلنا سعادتنا بهذا الاتحاد ، ولكن كان لا مفر من ان تذكر سولانج اسمها الحقيقي لكي تغدو زوجتي ، وكان اسمها الحقيقي ، وهو اسم رجل ارستقراطي مهاجر محكوم عليه بالاعدام ، يحمل في طياته الموت . وكتبت اليها والدها مرارا يتعجل رحيلها ، ولكنها انبأته بحبنا وطلبت موافقته على زواجنا ، فوافق . وعلى هذا سارت الأمور على ما يرام من هذه الناحية .

غير انه ثارت قضية رهيبة ، اشد رهبة من سائر قضايا تلك الفترة ، أقضت مضاجعنا نحن الاثنين ، قضية ماري انطوانيت التي بدأت في ٤ من أكتوبر واستمرت على أشدها . وفي ١٤ من أكتوبر وقفت ماري انطوانيت أمام محكمة الثورة . وفي الساعة الرابعة من صباح ١٦ من أكتوبر صدر الحكم بادانتها ، وفي الحادية عشرة صعدت على منصة المقصلة . وفي الصباح تسلمت رسالة من سولانج تخبرني فيها انها لا تريد أن يمر عليها ذلك اليوم دون ان تراني . وعلى ذلك وصلت الى شقتنا الصغيرة في شارع تاران في حوالي الساعة الثانية ووجدت سولانج تبكي بحرقة ، وكنت انا حزينا لتنفيذ هذا الحكم فقد كانت الملكة تعطف علي وانا صغير فاحتفظت لها بذكرى عميقة . وا حسرتاه ! لم أزل أذكر هذا اليوم ، وكان يوم أربعاء ، وقد عم الحزن باريس ، وسادها الرعب . اما انا فقد انتابني تخاذل عجيب وشعور بتوقع مصيبة كبيرة . وحاولت أن اشد من عزيمة سولانج التي راحت تبكي وهي مرتمية بين ذراعي ، ولكن اعوزتني عبارات العزاء ، فقد هجر العزاء قلبي . وأمضينا الليل معا كالمعتاد ، ليل اشد كربا من

النهــار . واتذكر ان كلبا محبوســا فى الشقة التي تعلو شقتنا ظل يعوى حتى الساعة الثانية صباحا ، وفى اليوم التالى علمنا نباه :

لقد خرج صاحبه ومعه المفتاح ، وبينما هو يسـير فى الشارع اذ قبض عليه وسيق الي محكمة الثورة التى ادانته فى الساعة الثالثة واعدم فى السـاعة الرابعة .

وكان لابد أن نفترق فان فصـــول سولانج تبدأ فى التاسعة صباحا ، وكانت المدرسة التى تذهب اليها قريبة من حـــديقة النباتات . وترددت مرارا فى ان اتركها تذهب الي هناك ،بل انها لم تستطع أن تقر عزمها على تركي . على انها كانت معرضـــة لتحريات تضر بمركزها اذا هى تخلفت يومين عن الحضور . ومن ثم استدعيت عربة ومضيت بها الي ركن شارع « حفائر سان برنار» حيث نزلت وتركتها لتواصل طريقها . وكنا طوال الطريق متعانقين صامتين ، تختلط دموعنا التى كانت تسيل حتى شفاهنا ، تختلط مرارتها بحلاوة القبلات . واخيرا نزلت من العربة . وبدلا من أن اواصل طريقى ، وقفت متسمرا فى نفس المـكان حتى اداوم النظر الي العربة التى تقلها أطول مدة ممكنة . وبعد مسـيرة عشرين خطوة وقفت العربة واطلت سولانج من النافذة وكأنما قد خمنت اني ما زلت فى مكانى ، فركضت اليها وصعدت الى العربة واغلقت نوافذها واخذتها مرة اخرى بين ذراعي . وسمعنا ساعة كنيسة « سانت اتيين دي مونت » تدق التاســعة ، فمسحت دموعها ، واغلقت شفتيها بقبلات ثلاث ، وقفزت من العربة وابتعدت راكضا .

وخيل الي أن سولانج نادت ثانية ، وكان فى استطاعتى ان الحظ كل هــذه الدموع وهــذا التردد ، الا أن القدر المحتوم شاء آن يهب لي من الشجاعة ما يمنعنى من العودة اليها .

ورجعت الى البيت يائسا ، وامضيت اليوم أكتب الى سولانج ، وفى المساء أرسلت اليها الخطاب . وما ان القيت خطابى فى صندوق البريد حتى استلمت خطابا منها . لقد وبخوها فى المدرســة بشدة ، ووجهوا اليها العديد من الاسئلة وهددوها بالفـــاء أول تصريح لها بالخروج ، وكان محددا له يوم الاحد التالى . ومع ذلك اقسمت لي سولانج انها سوف تراني على أية حال حتى ولو أدي

ذلك الى قطع علاقتها بمديرة المدرسة . واقسمت انا ايضا على ذلك ، فقد خيل الى انه لو مرت سبع ساعات دون أن اراها ـ وهذا ماسوف يحدث اذا لم تستعمل تصريحها الاول بالخروج ـ فانني سوف اجن . وفضلا عن ذلك ابدت سولانج شيئا من القلق، ذلك انه عند عودتها من المدرسة وجدت خطابا من ابيها ، وبدا لها انه قد فتح . وامضيت ليلة سيئة ونهارا اغبر وكتبت الى سولانج كالمعتاد . ولما كان هذا اليوم مخصصا لتجاربي فقد مررت على اخي في حوالي الساعة الثالثة لاستصحبه الى «كلامار»

ولم يكن اخي في منزله ، فانصرفت وحدي ، وكان الجو رديئا للغاية ، والهواء مكفهرا ، والامطار تنهمر ، باردة متدفقة تنذر بحلول الشتاء . وعلى طول الطريق كنت أسمع صيحات الجماهير تزمجر بأصوات خشنة وتحصي قائمة المحكوم عليهم اليوم ، وكان عددهم كبيرا ، ومنهم رجال ونساء وأطفال ، ومن ثم كان المحصول وفيرا ، فلن تعوزني مادة التجارب هذه الليلة .

وانقضى النهار مبكرا . وفي الساعة الرابعة وصلت الى كلامار وقد أقبل المساء . وكان منظر الجبانة بشعا تنقبض له النفس، بقبورها الواسعة التي حفرت حديثا ، واشجارها القليلة التي تئن تحت ضغط الريح ، وكأنها هياكل عظمية . ولم يكن على سطح الارض سوى التربة المنبوشة والحشائش الشائكة ، وقد اخذت الارض المنبوشة تتسع رقعتها يوما بعد يوم فتجور على الارض الخضراء . وفي وسط كل هذه البروزات الأرضية ظهرت حفرة اليوم فاغرة فوهتها في انتظار فرائسها . ولما كان من المتوقع زيادة عدد المحكوم عليهم فقد جعلت الحفرة أوسع من المعتاد . ودنوت من الحفرة بحركة آلية ورايت قاعها ممتلئا بالمياه . فياللمساكين .. أولئك الذين سوف تلقى جثثهم العارية الباردة في هذا الماء الذي يماثلها في برودته . ولما اقتربت أكثر ، زلت قدمي وكدت أسقط في القاع ، ووقف شعر راسي هلعا ، وقد ابتلت ثيابي وارتعدت أوصالي ، فأسرعت الى معملي .

كان معملي كما ذكرت في كنيسة صغيرة قديمة ، فجعلت ادور بنظري في انحائها ابحث عن شيء ما ، لا ادرى ما هو ... كنت

ابحث عن اى اثر دينى على الحائط او فى الموضع الذى كان فيما مضى محرابا ، ولكن الحائط كان عاريا والمحراب أجرد . وفى المكان الذى كانت فيه المظلة المقدسة ، رمز الآلهة ، أى الحياة نفسها ، وجدت جمجمة انسلخ منها لحمها وشعرها ، فهى رمز الموت والفناء.

واضأت الشمعدان ووضعته على منضدة التجارب التى تكدست عليها أجهزة غريبة الشكل اخترعتها بنفسى . وجلست ، ورحت أحلم ... فيم كنت احلم ؟ فى تلك الملكة المسكينة التى شهدتها فيما مضى جميلة سعيدة محبوبة ؛ والتى اقتيدت بالامس فى عربة السجن الى المقصلة تطاردها لعنات الشعب ، وترقد فى هذه الساعة فى مقبرة البؤساء ورأسها مفصول عن جسدها ، تلك التى كانت تنام تحت سقف مذهب بقصور التويلرى وفرساى وسان كلو .

وبينما كنت غارقا فى هذه الافكار القاتمة ، تضاعف هطول المطر وهبت ريح عاصفة تطلق أصواتها المفجعة النائحة بين أغصان الأشجار وسيقان الحشائش التى ترتجف تحت وطأتها ، وبعد قليل اختلط بهذا الضجيج صوت كهدير الرعد ، ولكنه لم يكن الرعد فى الفضاء ، بل صوت شيء يدق الارض فيرجها رجا ، صوت عجلات العربة الحمراء حاملة جثث المحكوم عليهم راجعة من ميدان الثورة وداخلة جبانة كلامار .

وفتح باب الكنيسة الصغيرة ودخل رجلان مبتلان يحملان كيسا ، أحدهما هو ليجروس نفسه الذى زرته فى السجن ، والآخر حفار القبور . وقال مساعد الجلاد : « هلم يا سيد ليدرو ، اليك عملك ، ولا حاجة بك الى العجلة هذا المساء فسنترك لك كل هذه الشحنة ، وندفنهم غدا نهارا ؛ انهم لن يصابوا بالبرد اذا امضوا الليل فى الخلاء » .

وأطلق ضحكة بشعة ووضع الكيس فى ركن الكنيسة بالقرب من مكان المحراب القديم وامامى الى اليسار ، ثم خرج الرجلان دون أن يغلقا الباب الذى راح يصفق بشدة آذنا الريح أن تمر متقطعة فتذبذب لهب الشمعدان الذى أصبح باهتا يتلاشى على طول

فتيلته السوداء . وسمعت الرجلين يفكان الحصان من العربة ويغلقان الجبانة وينصرفان تاركين العربة مملوءة بجثث القتلى .

وشعرت برغبة شديدة فى الانصراف معهما ، ولكنى لا أدرى ماالذى احتجزنى فى مكانى وانا ارتجف . والشيء المؤكد اننى لم أكن خائفا ، ولكن صوت الريح والمطر المنهمر وصرخات الاشجار التى كانت تتلوى وصفير الهواء الذى كان يرتجف منه لهيب الشمعدان ، كل هذا الهيب رأسي برعب غامض امتد من جذور شعرى وشمل كل جسمى . وفجأة خيل الى ان صوتا رقيقا نائحا صادرا من قلب الكنيسة الصغيرة نطق باسم البير . أوه !.. يالها من صدمة ارتعدت منها فرائصى .. البير ! لا يوجد فى الدنيا غير شخص واحد ينادينى بهذا الاسم .

واستدارت عيناي الزائغتان تبحثان ببطء فى انحاء الكنيسة التى لم يتمكن اللهب من اضاءة كل اجزائها على الرغم من ضيقها واستقر بصرى على الكيس القابع فى زاوية المحراب والذى كان نسيجه المنتفخ المخضب بالدماء يفصح عن محتوياته البشعة . وفى اللحظة التى استقر فيها بصرى على الكيس تردد الصوت نفسه ولكنه كان فى هذه المرة أضعف وأشد نواحا ، ونادى بنفس الاسم : البير ! وخيل الى ان هذا الصوت آت من داخل الكيس ، فاستقمت مرتعبا ، وتحسست جسمى لأعرف أنائم أنا أم يقظ ، ثم قمت وسرت وانا جامد كالحجر ممدود الذراعين واتجهت الى الكيس وأدخلت فيه احدى يدى . وعندئذ خيل الى ان شفتين دافئتين تضغطان على يدى . وكنت فى حالة مفرطة من الرعب بعثت فى نفسى بعض الجراة ، فامسكت بذلك الراس وعدت به الى مقعدى ، وتهاويت على المقعد ووضعت الراس على المنضدة . وفجأة اطلقت صيحة رهيبة . اواه ! هذا الراس الذى ما زالت شفتاه دافئتين وعيناه نصف مغلقتين ... هو راس سولانج !

ولابد اننى جننت ، وصحت ثلاثا : سولانج ! سولانج ! سولانج! وفى المرة الثالثة تفتحت العينان ونظرتا الى وسقطت منهما دمعتان ، وانبعث منهما لهب مندى ، كأن الروح قد انسلت منهما ، ثم أغمضتا الى الابد .

ونهضت هائجا وقد طاش صوابى واصابنى مس من الجنون ،

واردت الفرار . وعند قيامي اشتبك ذيل سترتي بالمنضدة فانقلبت وسقط معها الشمعدان الذى انطفأ وتدحرج الراس ، وسقطت أنا مذهولا ... وعندئذ خيل الى ، وأنا راقد على الارض ، انني رأيت الراس ينزلق ويقترب من راسي ، منحدرا مع ميل البلاط ، حتى مست شفتاه شفتي ، واخذتني رعشة باردة زلزلت كياني ، فتأوهت ورحت في غيبوبة . وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالى وجدني اللحادون باردا كالبلاط الذى كنت راقدا عليه .

كانت شخصية سولانج قد عرفت من خطاب والدها فقبض عليها وحوكمت واعدمت في اليوم نفسه . وكان الراس الذى كلمني ، ونظرت الى عيناه ، وقبلت شفتي شفتاه ... هو راس سولانج .

واستدار السيد ليدرو نحو الشفاليبه وقال له : وانت تعلم بالينوار انني اشرفت آنذاك على الهلاك .

القط والحاجب والهيكل العظمى



(٨) القط والحاجب والهيكل العظمى

كان لقصة السيد ليدرو على نفوسنا وقع رهيب فلم يخطر لأحد منا ، حتى الطبيب ، أن يغالب شعوره . ولما وجه السيد ليدرو خطابه الاخير الى الشفالييه لينوار ، أجاب هذا بايماءة بسيطة مؤيدة . اما السيدة الشاحبة التى كانت قد اعتدلت قليلا، على أريكتها فانها عادت فتهاوت على الوسائد ، ولم يبد منها ما يدل على الحياة سوى تنهدها ، واما رئيس الشرطة الذي لم يجد فى كل هذا الحديث ما يستحق أن يثبته فى محضره ، فانه لم ينبس ببنت شفة ، واما أنا فقد استوعبت أدق التفاصيل فى هذه الفاجعة ، وحفظتها فى ذاكرتى لأسترجعها اذا ما رغبت يوما فى أن احكيها ، واما البيت والقس مول ، فان هذه المغامرة كانت تؤيد تماما ما يعتقدانه ، فلم يحاولا الاعتراض .

وكان القس مول أول من قطع حبل السكون ، فقال معبرا عن الرأى العام : اننى اصدق تماما كل ما قصصته علينا ايها العزيز ليدرو ، ولكن كيف تفسر ما حدث ؟

ـ اننى لم افسره ، بل قصصته فقط .

وتساءل الطبيب : نعم ، كيف تفسر ؟ فمهما كان الأمر، ومهما استطالت الحياة فى الرأس ، فليس فى الامكان التسليم بأن رأسا يتكلم وينظر ويتحرك بعد انقضاء ساعتين على انفصاله من الجسد.

ـ لو كان بوسعي ان افسر الأمر لنفسى لما اصبت بهذا المرض الخطير .

وقال الشفالييه لينوار : ولكن قل لى ياذكتور ، كيف تفسر انت هذا الأمر ؟ اذ لايمكن ان تزعم بأن السيد ليدرو قد اخترع هذه القصة ليؤيد وجهة نظره ، فان مرضه كان حقيقة واقعة .

ـ بالتأكيد ، ولكن المسألة بسيطة . لقد خيل الى السيد ليدرو فى نوبة الهذيان انه رأى وسمع ، فاعتقد انه رأى ما رآه وسمع ما سمعه بالفعل ، ذلك ان الاعضاء التى توصل الاحساس الى المخ قد تختل بفعل بعض الظروف فتضطرب وينتج عن ذلك انها تنقل احساسات غير صحيحة ، فيظن المرء انه يسمع، فيسمع فعلا ، وانه يرى فيرى فعلا . وقد أثر البرد والمطر والظلام فى اعضاء السيد ليدرو فجعلها تضطرب . والمجنون ايضا يرى ويسمع ما يتوهم انه يراه ويسمعه . والهلوسة جنون وقتى يحتفظ المرء منه ببعض الذكريات بعد أن يزول مفعوله . هذى هى الحقيقة .

وتساءل القس مول : واذا لم يزل المفعول ؟

ـ حسن . عندئذ يدخل المريض فى طور الامراض المستعصية الى ان يموت .

ـ وهل عالجت مثل هذا المرض يا دكتور ؟

ـ لا ، ولكنى اعرف بعض الاطباء الذين عالجوا مثل هذا المرض ، ومنهم طبيب انجليزى كان يرافق « وولتر سكوت » فى رحلته الى فرنسا .

ـ هل قص عليك حالة معينة ؟

ـ نعم ، كتلك القصة التى رواها لنا مضيفنا ، وربما تكون اغرب

ـ طبعا .

ـ وفسرتها انت من وجهتها المادية ؟

ـ طبعا .

ـ هلا تحكى لنا ذاك الحادث الذى قصه عليك الطبيب الانجليزى؟

ـ دون شك .

ـ آه ! احكها لنا يا دكتور ، هيا !

ـ امن الضرورى ذلك ؟

وصاح الجميع : دون شك .

ـ حسن ! كان الطبيب الذى رافق « وولتر سكوت » فى فرنسا يدعى دكتور « سمبسون » وهو من أبرز الشخصيات فى كلية ادنبرة ، على صلة وثيقة بأكبر شخصيات المدينة ، ومن تلك الشخصيات قاض فى محكمة الجنايات لم يذكر لى اسمه ، فقد رأى من اللائق أن يحتفظ بهذا الاسم سرا ، وكان الطبيب يعود هـذا القاضى للعناية بصحته دون أن يشكو القاضى من علة معينة

ظاهره . ولكن حدث فجأة ان انهارت قوى القاضي بعد ان اعترته كآبة شديدة . واستوضح أفراد أسرة القاضي الطبيب مرارا في شأن المريض ، واستجوب الطبيب مريضه دون ان يستخلص منه اكثر من اجابات غامضة ضاعفت من قلقه واكدت له ان في المسألة سرا يكتمه . وذات يوم الح الطبيب على مريضه بشدة حتى اعترف له بمرضه ، وتناول يديه وقال له وهو يبتسم بحزن :

— نعم ، انا مريض ، ومرضي يادكتور عضال ، يستحيل علاجه وهو فضلا عن ذلك في مخيلتي وحدها .

— كيف ! في مخيلتك ؟

— نعم ، سأصبح مجنونا .

— مجنونا ! ومم ؟ أجبني . نظرتك نظرة عقلاء ، وصوتك هادىء (يتناول يده) ونبضك رائع .

— وهذا يا دكتور هو السر في خطورة حالتي ، انني اشعر بها واحكم عليها .

— ولكن اخبرني عن موضوع جنونك .

— اغلق الباب يا دكتور حتى لا يضايقنا احد ، وساخبرك بما تريد .

فأقفل الطبيب الباب . ثم عاد وجلس بالقرب من صديقه .

قال له القاضي : أتذكر القضية الجنائية الاخيرة التي كنت مكلفا بالحكم فيها ؟

— نعم ، ضد قاطع طريق اسكتلندي ، حكمت عليه بالاعدام شنقا ، وشنق .

— تماما . حسن ! في اللحظة التي نطقت فيها بالحكم ، انبثق شعاع من عينيه وهددني بقبضة يده . ولم اهتم به ، فالمحكوم عليهم كثيرا ما يفعلون ذلك . غير انه في اليوم التالي لتنفيذ الحكم حضر الجلاد الى منزلي واعتذر في ذلة عن هذه الزيارة ، وصرح لي بأنه رأى من واجبه أن ينبهني الى مسألة خاصة : ذلك ان اللص قبل ان يسلم الروح اقسم انني سوف اسمع خبرا عنه في الساعة السادسة من مساء اليوم التالي ، اى في نفس الوقت الذى تم فيه تنفيذ الحكم . وظننت ان في الأمر اعتداء مفاجئا ، أو انتقاما مسلحا يرتكبه اعوانه ضدى . وفي الساعة السادسة حبست نفسي في مكتبي ومعي مسدسان على المكتب ،

وكنت طول اليوم مشغول البال بهذا الأمر. وعندما رنت الساعة آخر رنة ، سمعت همهمة لم أعرف مصدرها ، فاستدرت وأبصرت قطا كبيرا أسود مشربا بحمرة كاللهب . ولم أدر كيف دخل هذا القط حجرتي ، فالأبواب والنوافذ كلها مغلقة ، فلا بد انه كان محبوسا بها طول النهار .

ولم أكن قد ذقت اى طعام بعد الظهر ، فقرعت الجرس واقبل خادمي ولكنه لم يستطع الدخول لانني كنت قد اغلقت الباب من الداخل ، فقمت الى الباب وفتحته ، وحادثت الخادم عن القط الأسود الضارب الى الحمرة ، وبحثنا عنه عبثا ، فقد اختفى .

ولم افكر في الأمر بعد ذلك ، وانقضى المساء واقبل الليل ثم النهار ، وانقضى اليوم ودقت الساعة السادسة ، واذا بى اسمع نفس الصوت آتيا من ورائى ، وابصرت القط نفسه الذى وثب هذه المرة على ركبتى . ولم أكن أكره القطط ، ومع ذلك تضايقت من تصرف هذا القط المجرد من اى كلفة فطردته من فوق ركبتي، ولكنه ما ان لمس الارض حتى عاد فوثب فوق حجرى ، فطردته ثانية دون جدوى . كما حدث في المرة الاولى . وعندئذ نهضت وطفقت أتجول في الغرفة والقط يتبعني . ولما ضقت ذرعا بهذا الإلحاح ، قرعت الجرس كما فعلت بالامس فدخل الخادم ، ولكن القط هرب تحت السرير . ورحنا نبحث عنه ، ولكنه كان قد اختفى .

وفي هذا المساء خرجت وزرت اثنين أو ثلاثة من الاصدقاء ، ثم عدت الى المنزل ودخلته مستخدما مفتاحي الخاص . ولما لم يكن معى مصباح فقد صعدت السلم بحذر خوفا من أن أصطدم باى شيء . وعندما وصلت الى الدرجة الاخيرة ، سمعت الخادم يتحدث مع وصيفة زوجتي ، وسمعت اسمى فتوقفت وأصغيت الى ما يقال عنى ، فسمعت الخادم يقص ما حدث هذا المساء والبارحة ، واضاف قائلا : « لابد أن السيد قد جن . فلم يكن هناك قط أسود مشربه بحمرة اللهب لا في الغرفة ولا في يدى».

وافزعتنى هذه الكلمات القليلة ، فهناك شبح ، حقيقى أو كاذب ، فان كان حقيقيا فانا فريسة حدث من الخوارق ، وان كان كاذبا ، أي انني أرى أشياء لا وجود لها ، كما قال خادمى ، فانا قد جننت .

ولك ان تتصـــور ياصـــديقي العزيز حالتي وانا انتظر حلول الساعه السادســه بنفاد صبر يخالطــه خوف . وفي اليوم التالي استبقيت خادمي بجوارى بحجه اجراء بعض الترتيبات .

ودقت الســـاعة السادسة وهو بالقرب منى . ومع آخر دقة سمعت نفس الصــوت ورايت نفس القط جالسـا بالقرب منى .

وبقيت لحظة لا أتــكلم ، على أمل ان يلحظ الخادم وجود الحيوان ويحدثني هو أولا عنه . ولــكنه كان يتمشى في الغرفة دون أن يبـدو عليه أنه يرى أى شيء . وتحينت فرصة ، فأصدرت اليه امرا يضطر لتنفيـذه أن يمر فوق القط ، فقلت له : « جون ، ضع الناقوس على المنضدة » . وكان جون واقفا عنـــد راس السرير ، والناقوس فوق المدفاة ، ولــكي يقطع الطريق من راس السرير الى المدفاة ، كان لزاما عليـه ان يخطو فوق الحيوان .

وتحرك جون ، وفي اللحظة التي كان فيهـا على وشـك أن يطـأ الحيوان بقدمه ، وثب هذا فوق ركبتي . ولم يره جون، أولعله تظاهر بأنه لم يره . واعترف ان عرقا باردا سال على جبيني ، وتملكت في خاطري عبارة « لابد ان السيد قد جن » بصورة مرعبة .

قلت : جون ، الا ترى شيئا على ركبتي ؟

ونظر الى جون ، ثم قال بلهجة الرجل الذى قر قراره : نعم ياسيدى ، أرى قطا .

وتنفست الصعداء وتناولت القط وقلت له : في هـذه الحالة ياجون ارجوك ان تحمل القط وتخرجه من الغرفة .

ومد يديه نحوى فوضعت القط على ســـاعديه وأشرت له فخرج . وهـدأ بالى بعض الشيء . ولعشر دقائق جعلت اتلفت حولى ببقية من فضـول ، ولمـا لم أبصر اى كائن حى من فصيـلة حيوانية ، عزمت ان ارى ما صـــنعه جون بالقط . وعلى ذلك خرجت من غرفتى وفي نيتى ان اســاله في ذلك . وعندما وضعت قدمى على عتبة باب غرفة الاستقبال ، سمعت قهقهة عالية آتيـة من غرفة زينــة زوجتى . واقتربت برفق على اطراف اصابع قدمى فسمعت صوت جون وهو يقول للخادمة :

ـ صديقتى العزيزة ، ليس سيدى على وشك الجنون فحسب ، بل انه قد جن بالفعل ، وينحصر جنونه في انه يرى قطا اسـود ضاربا الى حمرة نارية . وفي هـذا المساء سالنى عما اذا كنت ارى القط فوق ركبتيه .

فسألته الخادمة : وبماذا اجبت ؟
فقال جون : لعمري ، اجبت بأني أراه . يا لسيدي المسكين ، لم اشأ أن أكذبه . خمني ما فعله عندئذ ...
ــ كيف تريدني ان اخمن ؟
ــ حسن ! رفع القط المزعوم من فوق ركبتيه ، ووضعه على ذراعي ، وقال لي : « احمله ! احمله ! » فحملت القط بشهامة ، وارتاح هو .
ــ ولكن ما دمت قد حملت القط ، فهل كان هناك حقيقة قط ؟
ــ كلا ، لم يكن للقط وجود الا في مخيلته . ولكن ماذا يفيده أن اخبره بالحقيقة ؟ لعله كان يطردني . لعمري انني هنا على ما يرام ، وسأبقى هنا . انه يمنحني خمسة وعشرين جنيها في السنة لاري قطا ! وهاأنذا اري القط ، وفي استعداد لان اري قطين اذا اعطاني ثلاثين جنيها .
ولم اجرؤ على سماع المزيد من هذا الكلام ، فتنهدت وعدت الى غرفتي .
وفي الساعة السادسة من مساء اليوم التالي ، كان رفيقي (القط) بالقرب مني كالمعتاد ، ولم يختف الا في صباح اليوم التالي .
واردف المريض قائلا : ماذا اقول لك ياصديقي ، تجدد ظهور الشبح نفسه كل مساء لشهر كامل ، وبدات اعتاد وجوده . وفي اليوم الثلاثين بعد تنفيذ حكم الاعدام ، دقت الساعة السادسة ولم يظهر القط ، وظننت انني قد تخلصت منه ، ولم انم من شدة الفرح .
وفي مساء اليوم التالي ، جعلت اتعجل مرور الوقت ، متلهفا على حلول الساعة المشئومة . ولم تبرح عيناي ساعة الحائط منذ الخامسة حتى السادسة ، متتبعا سير العقرب وهو يتقدم دقيقة بعد اخرى حتى وصل الى رقم ١٢ واهتزت الساعة ، ورنت الدقة الاولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة ، واخيرا السادسة .!
وقال القاضي التعس : وعند الدقة السادسة ، انفتح الباب ، ودخل حاجب يرتدي حلة خاصة بخدم بعض أمراء اسكتلندا . واول ما تبادر الى ذهني أن الامير قد بعث الى برسالة ، فمددت يدي نحو الطارق المجهول ، ولكنه لم يعبأ بحركتي ، بل وقف

خلف مقعدي . ولم تكن بي حاجة لان أستدير لكي اراه ، اذ كنت امام مرآة فرأيته خلالها . نهضت اذن ومشيت ، فتبعني بضع خطوات ، ثم عدت الى المنضدة وقرعت الجرس فأقبل خادمي ولكنه لم ير الحاجب كما لم ير القط من قبل. وصرفت الخادم ومكثت فى الغرفة مع ذلك الشخص الغريب ، واتسع امامى الوقت لافحصه على مهل . كان مرتديا زى البلاط ، وشعره مصففا ، وسيفه مدلى بجانبه ، ورداؤه مطرزا ، وقبعته تحت ذراعه . وفى الساعة العاشرة رقدت فجلس هو على مقعد مقابل لسريرى ، وكأنه قد اعتزم أن يقضي الليلة فى راحة تامة الى جوارى. وأدرت راسى ناحية الحائط . ولما كان من المستحيل ان أنام ، فقد استدرت مرتين او ثلاثا ، ورأيته فى ضوء مصباحى الصغير جالسا على نفس المقعد . ولم ينم هو ايضا . وأخيرا رأيت أول خيوط النهار تنفذ الى غرفتى خلال ضلف النافذة ، فاستدرت لآخر مرة ناحية الرجل ، فلم اره ، كان قد اختفى ، والمقعد خال . وهكذا تخلصت من الشبح حتى المساء . وفى المساء اقيمت حفلة استقبال بمنزل راعى الكنيسة الاكبر . وفى الساعة السادسة الا خمس دقائق ، استدعيت خادمي بحجة اعداد ملابسى الرسمية وأمرته بأن يحكم غلق الباب بالمزلاج . وأطاع الخادم . ولما دقت الساعة السادسة ثبت نظرى على الباب فرأيته ينفتح ويدخل منه الحاجب . فذهبت من فورى الى الباب فوجدته مقفلا ، والمزلاج ثابتا لم يتحرك . وعدت فوجدت الحاجب واقفا خلف مقعدى وجون يتجول فى الغرفة دون أن يبدو عليه انه يشعر بوجود الحاجب . كان واضحا ان الخادم لم ير الرجل كما لم ير القط من قبل . وارتديت ثيابي .

وحدث عندئذ شيء غريب ، اذ جعل ضيفي يبدى اهتماما شديدا بأمرى فراح يساعد جون فى كل ما يفعله دون ان يدرك جون ذلك . فمثلا أمسك جون ردائى من ياقته ، بينما امسك الشبح الثوب من ذيله ، وقدم لى جون السروال ممسكا بمنطقته ، فى حين امسك الشبح بساقي السروال . ولم أر فى حياتى خادما اشد فضولا من هذا الحاجب .

وحانت ساعة الخروج ، وعندئذ لم يتبعنى الحاجب ، بل تقدمنى وانسل خلال الباب وخرج من الغرفة ونزل السلم وراء جون

وقبضته تحت ذراعه . وفتح جون باب العربة ثم اغلقه واتخذ مكانه على المقعد الخلفي بينما صعد الشبح وجلس على مقعد السائق بجواره . وعند باب منزل راعى الكنيسة الاكبر وقفت العربة ففتح جون بابها ، واسرع الشبح فوقف خلفه . وما كادت قدمي تطأ الارض حتى اندفع الشبح امامي بين الخدم المحتشدين عند الباب وراح ينظر ما اذا كنت سأتبعه . وعندئذ تملكتني الرغبة في ان اجرى مع السائق نفس التجربة التي اجريتها مع جون قبلا فقلت له :

ــ باتريك . من الرجل الذي كان بجانبك ؟

فقال السائق : اي رجل يا صاحب السعادة ؟

ــ الذي كان جالسا علي مقعدك ؟

وادار باتريك عينيه حوله بدهشة .

فقلت له : حسن ، لعلني أخطأت .

ودخلت بدوري . وكان الحاجب واقفا على السلم في انتظاري ، وما ان رآني امضى في طريقي حتى تقدم هو ايضا في طريقه فدخل امامي وكأنه سوف يعلن عن وصولي الى قاعة الاستقبال . ولما دخلت القاعة مضى هو الى غرفة مجاورة واتخذ مكانا مناسبا له . ولما كان الشبح خفيا عن انظار جون وباتريك فانه كان ايضا خفيا عن انظار الجميع . وعندئذ تحول خوفي الى رعب وادركت ان بي جنة بالفعل . ومن تلك الليلة لاحظ الجميع ما طرا على من تغيير وسألني كل انسان عما الم بى ، وانت منهم . ولم يزل الشبح في الغرفة المجاورة . وعند الانصراف ركض امامي كما فعل عند وصولي ، وصعد الى مقعد السائق ودخل معي الى المنزل ، وتبعني الى غرفتي ، وجلس على نفس المقعد الذي جلس عليه في الليلة الماضية . وعندئذ أردت ان اعرف ما اذا كان بهذا الشبح شيء مادي محسوس فغالبت نفسي ، وسرت القهقرى حتى جلست على المقعد . ولم أشعر بأى شيء وانما رأيته في المرآة واقفا خلفي ورقدت كما رقدت بالامس ، ولكن الساعة كانت الواحدة صباحا . ومن فراشي رأيته جالسا على المقعد وفي الصباح اختفي .

واستمر ظهور الشبح شهرا . وفي نهاية الشهر خالف عادته فتخلف يوما . ولم أتوهم في هذه المرة ، كما توهمت في المرة السابقة ، ان الاشباح قد انتهى أمرها معى تماما ، ولكنى توقعت

حدوث شيء رهيب . وبدلا من أن استمتع بوحدتي ترقبت حلول اليوم التالي في هلع .

ولما دقت الساعة السادسة من اليوم التالي ، سمعت صوتا خفيفا بين ستائر سريري ، ولمحت خلالها ، بينها وبين الحائط ، هيكلا عظميا . وفي هذه المرة يا صديقي كان ما ظهر لي صورة حية للموت . رأيت الشبح واقفا لايريم ، ينظر الي بعينين فارغتين . فنهضت ودرت في الغرفة عدة دورات . فكان الرأس يتبعني بنظرته أينما سرت ، ولم تبرحني العينان لحظة ، مع بقاء الجسم ساكنا بلا حراك .

ولم اجرؤ على الرقاد في تلك الليلة ، ولكنني نمت ، او بالاحرى مكثت مغمض العينين وانا جالس في المقعد الذي كان يجلس عليه الشبح الذي اسفت لفراقه . وفي الصباح اختفى الهيكل . وأمرت جون ان يغير موضع السرير ويغلق الستائر . وفي الساعة السادسة سمعت نفس الحفيف ، ورأيت الستائر تتحرك ، ولمحت اطراف عظام يدين تزيحان الستائر حتى انفرجت وظهر الهيكل واتخذ نفس الوضع الذي اتخذه الليلة الماضية . وفي هذه المرة تشجعت ورقدت ، ومال الرأس ناحيتي كما فعل في الليلة الماضية وثبت نظراته علي كما فعل البارحة ، ولك أن تتصور كيف قضيت تلك الليلة ! والآن ، وقد عرفت ما بي ، هل ما زلت تفكر في علاجي ؟

فأجاب الطبيب : ساحاول على الاقل .

— كيف ذلك ؟ اخبرني .

— اعتقد أن الشبح الذي تراه لا وجود له الا في مخيلتك .

— ما أهمية وجوده أو عدم وجوده ما دمت اراه ؟

— اتريد أن احاول رؤيته بنفسي .

— لا اسأل شيئا افضل من هذا .

— ومتى ؟

— في أقرب وقت مستطاع . غدا .

— حسن ، في الغد ، وحتى يأتي الغد ، تشجع يا صديقي !

وابتسم المريض ابتسامة حزينة . وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي دخل الطبيب غرفة صديقه وقال له : حسن ! أين الهيكل ؟

فأجاب هذا بصوت ضعيف : اختفى منذ برهة .

ـ اذن سوف نرتب امورنا بحيث لا يعود هذا المساء .
ـ فليكن .
ـ اولا .. تقول انه يدخل مع دقة الساعة السادسة ؟
ـ دون شك .
ـ فلنبدا بايقاف ساعة الحائط .
واوقف رقاص الساعة .
ـ ماذا تريد ان تفعل ؟
ـ اريد أن اعطل قدرتك على حساب الزمن .
ـ حسن !
ـ والآن ، سوف نحكم اغلاق ضلف النوافذ ونثبت الستائر .
ـ ولم هذا ؟
ـ للغرض نفسه ، لكيلا تتمكن من معرفة سير الوقت .
ـ فليكن .
واغلقت الضلف باحكام ، واسدلت الستائر ، واضيئت الشموع .
وقال الطبيب لجون : أعد طعام الغداء والعشاء ، فاننا لانريد أن تقدم الوجبات في اوقات محددة ، ولكن تقدم فقط عندما اطلبها .
وقال المريض : اتسمع يا جون ؟
ـ نعم ياسيدي .
ـ واحضر لنا ورق اللعب ونردا ودومينو والركنا .
واحضر جون الأشياء المطلوبة وانسحب .
وشرع الطبيب يسلي مريضه بقدر ما يستطيع متحدثا اليه حينا ، لاعبا معه حينا آخر ، حتى اذا جاع قرع الجرس . اما جون الذي كان يعلم الداعي الى قرع الجرس فانه احضر طعام الغداء ، وبعد الانتهاء من تناول الطعام عاد الاثنان الى اللعب ، واستمرا فيه حتى قرع الطبيب الجرس من جديد ، فأحضر جون طعام العشاء ، وأكل الاثنان وشربا ، وتناولا القهوة ، ثم عادا الى اللعب ، وخيل اليهما أن اليوم طويل وهما يزجيانه معا على هذا المنوال . وظن الطبيب انه يقيس الوقت بمخيلته وان الساعة الرهيبة لابد قد انقضت ، فقال وهو ينهض :
ـ حسن ! لقد انتصرنا !
فقال المريض : كيف انتصرنا ؟
ـ بلا شك ، لابد ان تكون الساعة الآن الثامنة او التاسعة على

الاقل ، ولم يحضر الهيكل العظمى .

– انظر الى ساعتك يا دكتور ما دامت هى الساعة الوحيدة التى تدور فى المنزل ، فإن كانت الساعة قد مرت ، فانى أقسم ان اهتف معك هتاف الانتصار .

ونظر الطبيب الى ساعته وسكت .

وقال المريض : لقد اخطأت يا دكتور ، اليس كذلك ؟ الساعة السادسة تماما .

– نعم ، وبعد ؟

– حسن ! ها هو ذا الهيكل العظمى يدخل .

وارتد المريض الى الخلف وهو يتنهد بقوة . ونظر الطبيب حوله وسأله : اين تراه اذن ؟

– فى مكانه المعتاد بين الحائط والسرير ، خلال الستائر .

ونهض الطبيب ، وسحب السرير ، ومر بينه وبين الحائط ، ومضى بين الستائر فاتخذ المكان المفروض أن الهيكل العظمى يشغله.

– والآن ، أما زلت تراه ؟

– لم أعد أرى الجزء الاسفل من جسمه لأنه قد حجب بجسمك ، ولكنى أرى جمجمته .

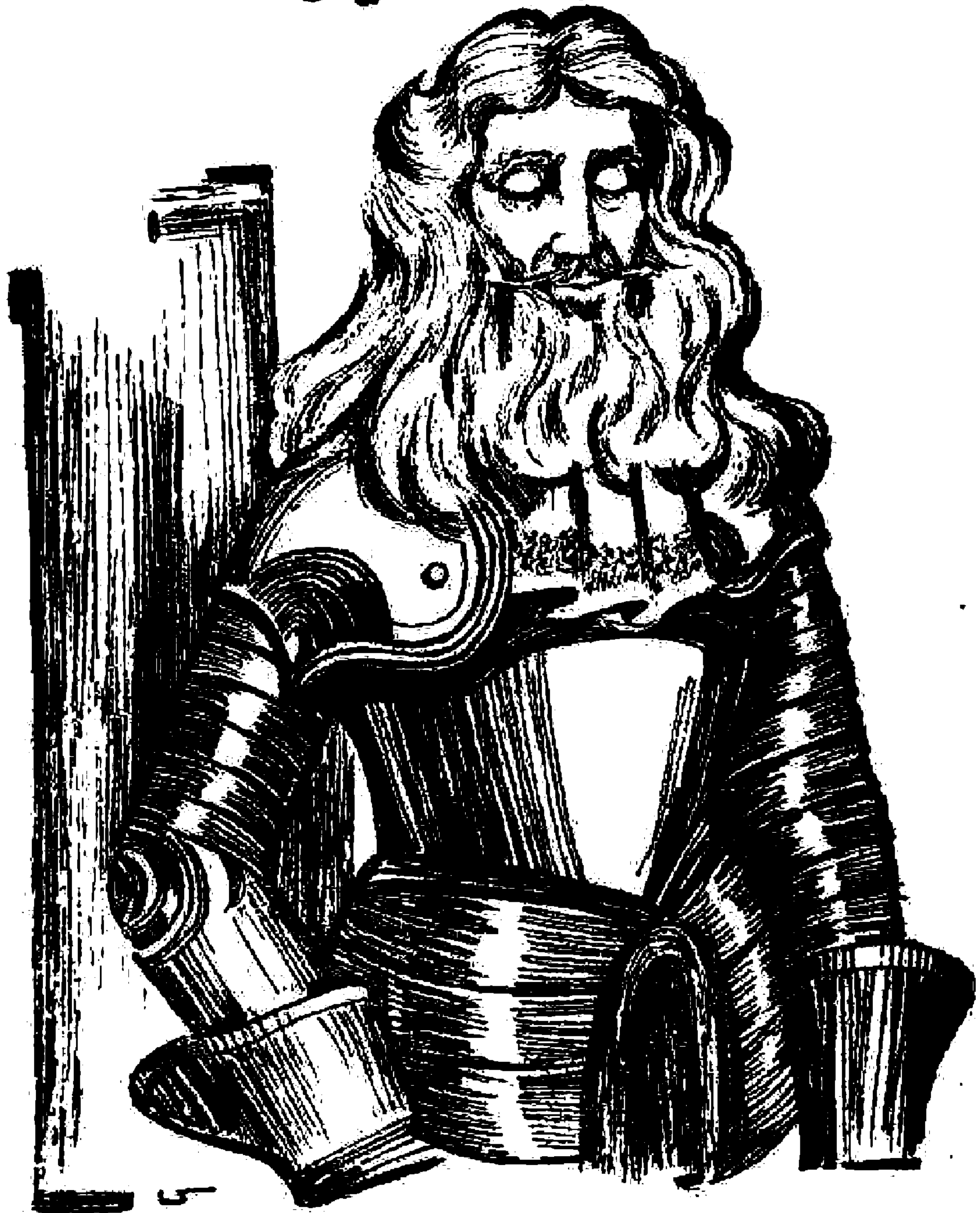
– اين ؟

– فوق كتفك اليمنى ، كما لو كان لك راسان ، احدهما حى والآخر ميت .

وعلى الرغم من ان الطبيب لم يصدق شيئا من هذا الكلام ، فانه أرتجف ، واستدار ، ولكنه لم ير شيئا . وعاد الى المريض وقال له بأسى : « ياصديقى ان كان لديك ما توصى به ، فاكتب وصيتك » . وخرج .

وبعد تسعة أيام دخل جون الى غرفة سيده فوجده ميتا على سريره .. وكان قد انقضى ثلاثة أشهر كاملة على تنفيذ حكم الاعدام فى اللص .

مقابر سان دنيس



(٩) مقابر سان دنيس

قال السيد ليدرو : حسن ! ما معنى ذلك يا دكتور ؟

ــ معناه ان الأعضاء التى تنقل الى المخ الاحساسات التي تتلقاها قد تضطرب لسبب من الأسباب فتعرض على النفس صورة غير صحيحة وفى مثل هذه الحالة يرى الانسان اشياء ويسمع أصواتا لا وجود لها . هذى هى المسألة .

فقال الشفالييه لينوار فى حياء ، شأن العالم الطبيب القلب : ومع ذلك قد تحدث أشياء معينة تترك بعض الأثر ، أو تكهنات يتحقق بعضها . فكيف تفسر أيها الطبيب قصة أشباح ضربت انسانا فتركت آثارا سوداء على بدنه ؟ وشبح تكهن بالمستقبل منذ عشر سنوات أو عشرين او ثلاثين سنة مضت ، فصدق تكهنه ، أيستطيع من لا وجود له أن يحدث كدمات فى جسم حى أو يتكهن بما سوف يحدث ؟

فقال الطبيب : آه ! تقصد بذلك شبح ملك السويد ؟

ــ كلا ، بل أقصد ما شهدته بنفسى .

ــ أنت !

ــ نعم أنا .

ــ أين كان ذلك ؟

ــ بسان دينيس .

ــ متى ؟

ــ فى عام ١٧٩٤ ، عندما نبشت القبور .

السيد ليدرو : آه ! نعم ، استمع الى هذه القصة يادكتور .

ــ ماذا ؟ ماذا رايت ؟ تكلم .

ــ اليكم ما رأيت . فى عام ١٧٩٣ ، عينت مديرا لمتحف الآثار الفرنسي ، وبصفتي هذه حضرت استخراج الجثث المدفونة فى دير سان دنيس الذي غير المواطنون المتنورون اسمه فجعلوه «فرانسيال» . واستطيع الآن ، بعد انقضاء اربعين سنة ، أن أروى

لكم الأحداث الغريبة التى ميزت أعمال النبش هذه . ان بذور الحقد التى زرعها البعض فى نفوس الشعب ضـــد الملك لويس السادس عشر ، والتى لم تستطع أن تروى غليل المقصلة يوم ٢١ من يناير.. هذا الحقد امتد حتى شمل سائر ملوك أسرته . فقد أراد الشعب ان يتعقب الأسرة المالكة حتى منبعها ، والملوك حتى اجدادهم ، وان يذر فى الرياح رماد ستين ملكا ، ولعلهم كانوا متلهفين لمعرفة ما اذا كانت الكنوز العظيمة التى قيل انها مدفونة فى بعض هذه القبور ما زالت محفوظة وسليمة كما قال البعض.

وعلى هذا انقض القوم على سان دنيس . وبين يومى ٦ و ٨ من اغسطس دمروا واحدا وخمسين قبرا ، أى تاريخ اثنى عشر قرنا. وعندئذ قررت الحكومة أن تنظم هذه العملية ، وتنبش القبور لحسابها الخاص ، وترث الملكية بعد ان ضربتها الضربة القاضية فى شخص آخر ممثليها ، لويس السادس عشر . ثم أصبح الغرض من ذلك محو أسماء الملوك وذكراهم ، حتى عظامهم ، وشطب اربعة عشر قرنا من الحكم الملكي من تاريخ فرنسا . مســاكين أولئك المجانين الذين لا يدركون أن فى استطاعة الانسان أن يغير المستقبل، ولكنه لا يستطيع ابدا أن يغير الماضي .

واعدت فى الجبانة حفرة كبيرة مشتركة ، على نسق مقابر الفقراء. وفى هذه الحفرة التي غطى قاعها بطبقة من الجير ، وكأنها مستودع قمامة ، تقرر القاء عظام الملوك الذين جعلوا من فرنسا أعظم امة ، من « داجوبير » حتى لويس الخامس عشر .

وهكذا ارتاح النــاس ، بل واستمتع بالأمر المشرعون والمحامون والصحفيون الحاسدون . طيور الثورة الجارحة الذين تتألم عيونهم من دلائل المجد والعظمة ، مثلما تتالم عيون اخوانهم ، طيور الليل من الإنوار . ان الذى لايقوى على البناء ، يتباهى بالهدم . وعينته مفتشا للحفائر ، ووجدت فى ذلك فرصة لانقاذ الكثير من التحف الثمينة ، ولذلك قبلت الوظيفة . وفى يوم السبت ١٢ من اكتوبر، وكان التحقيق يجرى فى قضيـــة الملكة ، فتحت سرداب أسرة البوربون من ناحية المصليـــات الكائنة تحت الارض ، وبدأت باستخراج تابوت «هنرى الرابع» الذى مات مقتولا فى ١٤ من مايو عام ١٦١٠ وعمره سبعة وخمسون عاما . اما تمثال (بون نيف) ، تحفة « جان دي بولونى » وتلميذه ، فانه كان قد صهر وصنعت منه نقود كبيرة. ووجدت جثة هنرى الرابع محفوظة بصورة رائعة ،

فملامح الوجه واضحة . تلك الملامح التى باركها الشعب بمحبته ، وخلدتها ريشة الرسام « ريبان » . رأينا جثته تخرج ، فى مقدمة الجثث . وظهر فى ضوء النهار فى كفنه السليم ، فتاثرنا غاية التاثر ، وكادت ترتفع صيحة الشعب المعروفة جيدا فى فرنسا « يحيا هنرى الرابع ! » فتدوى تحت أقباء الكنيسة . ولما شهدت آيات الاحترام ، بل الحب هذه ، امرت بوضع الجثة واقفة، مستندة الى عمود من عمد المحراب . وفى هذا الوضع يستطيع كل انسان أن يأتى ويتاملها . وكان هنرى الرابع ، كما كان فى حياته . مرتديا سترته القطيفية السوداء التى برزت منها الاكمام والياقه البيضاء ، وجواربه الحريرية السوداء ، وحذاءه القطيفى. وكان شعره الاشيب الجميل يحيط براسه كالهالة ، وذقنه الابيض البديع يتدلى حتى صدره .

وبدا موكب كبير يمر امامه ، من قبيل المواكب التى تمر امام مخلفات القديسين : نساء يلمسن يدى الملك الطيب ، ويقبلن اطراف معطفه ، واخريات يضمن أطفالهن على ركبهن ويتمتمن بصوت خفيض : « آه ! لو كان حيا ، لما وزح الشعب فى مثل هذا البؤس ! » ، ولكن خليقات أن يضفن قائلات : « ولا فى مثل هذه الوحشية » لأن البؤس يحيل أفراد الشعب وحوشا .

واستمر مرور الموكب طوال يوم السبت ١٢ والاحد ١٣ والاثنين ١٤ من اكتوبر . وفى يوم الاثنين بدات أعمال الحفر من جديد بعد طعام الغداء ، اى فى الساعة الثالثة بعد الظهر. وكانت أول جثة خرجت الى النور بعد جثة هنرى الرابع ، جثة ابنه لويس الثالث عشر ، وكانت محفوظة جيدا . وعلى الرغم من طموس ملامح الوجه ، فانه كان فى المستطاع التعرف عليه من شاربه . ثم خرجت جثة لويس الرابع عشر ، تميزها ملامحها العريضة التى جعلت من وجه صاحبها نقابا مثاليا لأسرة البوربون ، ولكن الوجه كان اسود كالحبر. ثم خرجت على التوالى جثث مارى دى مديتشى زوجة هنرى الرابع الثانية ، وآن النمساوية زوجة لويس الثالث عشر، ومارى تيريز زوجة لويس الرابع عشر ، وولى العهد ، وكلها متعفنة ما عدا جثة ولى العهد الاكبر فانها كانت فى حالة تحلل سائل.

واستمر فى يوم الثلاثاء ١٥ من اكتوبر استخراج الجثث ، وظلت جثة هنرى الرابع واقفة فى مكانها مستندة الى العمود ، تشهد جامدة انتهاك حرمات الموتى من الاجداد والذرارى. وفى يوم الاربعاء

١٦ ، وفي نفس اللحظة التي فصـــل فيها رأس ماري انطوانيت بميدان الثورة ، أي في الساعة الحادية عشرة صباحا ، استخرج نعش لويس الخامس عشر من مقبرة البوربون ، وكان موضوعا عند مدخل القبو حسب التقاليـــد المتبعة في فرنسا ، في انتظار خليفته الذى قدر الا ينضم اليه ابدا . وحمل النعش وفتح داخل المقبرة على حافة الحفرة . ولما خرجت الجثة من النعش الرصاصي ، ظهرت سليمة ملفوفة جيـدا بالقماش والأربطـة . ولـكنها ما ان استخلصت مما كان يطوقها حتى ظهرت في حالة تعفن فظيـع ، وفاحت منهـا رائحة قبيحة للغاية لدرجة ان ابتعد عنها كل الناس، واضطررنا الى حرق عدة ارطال من البارود لتنقية الجو ، وللحال القينا في الحفرة ماتبقي من بطل «بارك أوسير» (حديقة الوعول) ، عشيق مدام شاتورو ، ومدام دو بومبادور ، ومدام دوباري ، على طبقة الجير الحي ، وغطينا هـذه المخلفات البشعة بالجير الحي .

وكنت آخر من بقى لاحراق البارود والقاء الجير ، واذا بي اسمع ضوضاء شـديدة داخل الـكنيسة ، فهرعت اليهـا ولمحت عاملا يناضـل وسـط زملائه ، وبعض النسوة يشرن اليه بقبضة أيديهن متوعدات . كان الشقى قد ترك عمله البشـع ليشهد منظرا ابشع منه ، منظر اعدام ماري انطوانيت . ولـما انتشى من الصيحات التى اطلقهـا والتى سمع مثلها من افواه الحشـود ، ومن رؤية الدم المهراق ، عاد الى سان دنيس واقترب من هنري الرابع الذى كان واقفا مسنودا الى العمود وحوله الفضوليون ، بل الخاشعون ، وقال له : بأى حق تظل أنت واقفا هنا بينما الملوك تقطع رءوسهم في ميـدان الثورة ؟ ثم انتزع ذقن الملك بيده اليسرى وصفع وجهه بيده اليمنى ، فسقطت الجثة على الارض وأحدثت صوتا كالصوت الذى يحدثه سقوط كيس مملوء بالعظام . وللحال انفجرت صيحة هائلة من كل النواحي . قد يجترىء انسان باقتراف هذا الفعل المهين على جثة أى ملك آخر ، ولـكن مع هنري الرابع ، الملك الذى احبه شعبه ، فان هذا الفعل يعد اهانة للشعب نفسه .

وعلى هـذا كان العامل عرضة لخطر شـديد حين بادرت الى نجدته . وما ان ادرك أنني جئت لمعونته ، حتى لجأ الى حمايتي. ولـكنني أردت مع ذلك ان اشـعره بفداحة الجرم الذى اقترفه ، فقلت للعمال : « يا أبنائي ، اتركوا هـذا الشقى ، ان للملك الذى اهانه هـذا الرجل مكانة كبيرة في العالم الاخروى ، فهو قادر على

أن يجلب له من لدن الله مايستحقه من العقاب» . ثم اخذت منه الذقن التى انتزعها من الجثة ، وكان ممسكا بها فى يده اليسرى ، وطردته من الكنيسة ، واعلنت أنه لم يعد من عمالى ، وظلت صيحات زملائه وتهديداتهم تطارده حتى الشارع .

ولما كنت اخشى أن تتكرر اهانة جثة هنرى الرابع ، فقد أمرت بنقلها الى الحفرة المشتركة . وفى الطريق ، شيعت الجثة بآيات التكريم والتبجيل ، ولم نرمها فى الحفرة كما فعلنا بسائر الجثث ، بل انزلناها برفق وأرقدناها بعناية فى أحد الأركان وغطيناها باحترام بطبقة من التراب بدلا من الجير .

وانصرم اليوم ، وانصرف العمال ، ولم يبق سوى الحارس ، وهو رجل طيب اقمته فى هذا المكان حتى لا يتسلل احد الى الكنيسة فى جنح الظلام للسرقة أو الاعتداء على الجثث . وكان الحارس ينام نهارا ويسهر ليلا من السابعة مساء حتى السابعة صباحا ، ويقضي الليل واقفا اوماشيا ليتدفأ ، أو جالسا بالقرب من نار موقدة بجوار احد العمد القريبة من الباب .

كان كل ما فى الكنيسة يمثل الموت ، وقد ضاعف التخريب من بشاعة المنظر . وكانت الأقباء مفتوحة ، وبلاطات القبور مرتكزة على الحوائط ، والتماثيل المحطمة مبعثرة على ارضية الكنيسة ، وهنا وهناك توابيت مفتوحة ، خرج منها الموتى الذين كانوا يعتقدون انهم لن يؤدوا الحساب عن اعمالهم الا يوم الحساب ، وكل شيء يبعث العقول المفكرة على التأمل ، ويولد الرعب فى النفوس الضعيفة .

ولم يكن الحارس لحسن الحظ روحا ذكية ، بل آلة منتظمة ، ينظر الى هذه الحطام كلها بنفس العين التى ينظربها الى غابة اجتثت أشجارها ، أو حقل جنى زرعه ، ولم يكن له من عمل سوى عد ساعات الليل والاصغاء الى دقات الساعة الرتيبة ، وهى الشيء الوحيد الذي بقى حيا فى هذه الكنيسة المنعزلة . وفى اللحظة التى دقت فيها الساعة مؤذنة منتصف الليل ، وحين رنت الدقة الاخيرة فى أعماق الكنيسة المظلمة ، سمع الحارس صرخات قوية صادرة من ناحية الجبانة فى صورة استغاثات طويلة شاكية نائحة . ولما تبددت دهشته الاولى ، تسلح بفأس وتقدم نحو الباب الذى يوصل الكنيسة بالجبانة ، فلما فتحه تأكد له أن الاصوات صادرة من حفرة الملوك ، فلم يجرؤ على التقدم ، وقفل الباب وبادر الى ايقاظى فى الفندق الذي كنت مقيما فيه .

ولم أصدق فى البداية صدور صيحات من حفرة الملوك . وكنت مقيما فى مواجهة الكنيسة تماما . ومن ثم فتح الحارس نافذة غرفتي . وخلال السكون الذى لم يعكره سوى هفيف نسائم الشتاء ، اعتقدت انني سمعت اصواتا شاكية خلاف اصوات الريح النائحة ، فنهضت ، وسرت مع الحارس حتى الكنيسة . ولما أغلق باب الرواق خلفنا ، سمعت الأصوات الشاكية التي حدثني عنها الحارس بمزيد من الوضوح . وكان من السهل معرفة مصدر هذه الاصوات حين انفتح باب المقبرة الذى لم يحكم الحارس غلقه ، اذ كانت آتية من الجبانة . واوقدنا مشعلين وسرنا نحو الباب ولكن تيار الهواء المار من الخارج الى الداخل أطفأ النار ثلاث مرات . وادركت انه من العسير عبور هذا الممر على هذه الحال ، على اننا لن نعاني مثل هذه الصعوبة اذا وصلنا الى الجبانة واشعلت مصباحا بالاضافة الى المشعلين . وانطفأ المشعلان وبقي المصباح مضيئا . واجتزنا الممر الضيق . ولما اصبحنا فى المقبرة اوقدنا المشعلين فلم تطفئهما الريح بعد ذلك . غير اننا كلما تقدمنا خفتت الصيحات وجعلت تتلاشى . وفى اللحظة التى وصلنا فيها الى حافة الحفرة كانت قد سكتت تقريبا . وحركنا المشعلين فوق الفتحة الواسعة . وفى وسط العظام ، وفوق طبقة الجير والتراب المختلطة بها ، لمحنا شيئا ليس له شكل معين ، يتحرك ويتململ ، كان هذا الشكل شبيها بالانسان ، فناديته قائلا : « يا هذا ، ماذا دهاك ؟ وماذا تريد ؟ » فتمتم قائلا : ياحسرتاه ! انا العامل البائس الذى صفع هنري الرابع .

— ولكن كيف جئت الى هنا ؟

— اخرجني اولا ايها السيد لينوار ، فانا اكاد اموت ، وستعرف كل شيء فيما بعد .

ولما اقتنع الحارس بأنه ازاء كائن حي ، زال من نفسه الرعب الذى اخذه اول الأمر ، فاقام سلما كان ملقى على كلا الجبانة وامسك به عموديا فى انتظار أوامري . عندئذ امرته بأن ينزل السلم فى الحفرة ، وطلبت من العامل ان يصعد ، فزحف حتى قاعدة السلم ، ولما وصل اليها ، واصبح مضطرا للوقوف لكى يرتقي السلم ، ادرك انه مصاب بكسر فى رجله وذراعه ، فالقينا اليه بحبل بطرفه انشوطة ، فلف الحبل تحت كتفيه ، وامسكت بالطرف الآخر للحبل . وهبط الحارس درجات السلم ، وامكننا بهذه

المحاوله الثانية ان نخلص هــذا المخلوق الحى من صحبة الموتى . وما ان خرج من الحفرة حتى أغمى عليه ، فأخذناه بجوار النــار وارقدناه على فراش من القش ، وارسلت الخارس ليحضر جراحا. وعاد الحارس ومعه طبيب قبل ان يسترد الجريح وعيه ، فلم يفتح عينيه الا فى اثناء اجراء العملية . ولمــا تم تضميد الجرح شكرت الطبيب .

ولمــا كنت اريد أن أعرف الظروف الغريبة التى اتت بهذا الرجل الآثم الى مقبرة الملوك ، صرفت الحارس الذى رحب بالانصراف لينام بعد تلك الليلة المليئة بالمؤثرات ، ومكثت وحدى بالقرب من العامل ، وجلست على حجر بجوار القش الذى كان راقدا عليه ، فى مواجهــة النــار التي كانت شعلتها المذبذبة تضىء ركن الكنيســة التى كنا بها ، تاركة باقى المــكان فى ظلام دامس . عندئذ استجوبت الجريح . واليكم ما قصه على :

لم يكن طرده من العمل بالأمر الذى يشغل باله فقد كان معه بعض النقود ، وكان يعلم آنئذ أن الانســان لا يعوزه شىء اذا كان معه نقود . وعلى ذلك ذهب ليجلس فى حانة ليلية ، وهناك راح يشرب زجاجة من الخمر . وبينما هو يشرب الــكأس الثالثة أبصر صاحب الحانة آتيا اليه يسأله : ألم تنته بعد ؟

ــ ولم ؟

ــ لأننى سمعت أنك انت الذى صفع هنرى الرابع .

فأجاب العامل بوقاحة : حسن ! نعم انا ، وبعد ؟

ــ وبعد ؟ اننى لا اقدم شرابا لوغد لئيم مثلك ســوف يجلب اللعنة على حانتى .

ــ حانتك انت ؟ انها للجميع ، وما دمت ادفع فهى بمثابة بيتى

ــ نعم ، ولــكنك لن تدفع .

ــ لمــاذا ؟

ــ لاننى لا اريد أن المس نقودك ، وحيث انك لن تدفع فانك لن تــكون فى هــذا المحل كما لو كنت فى بيتك ، بل تكون فى بيتى انا ، ومن ثم يكون من حقى ان ألقى بك الى الخارج .

ــ نعم ، اذا كنت أقوى منى .

ــ ان لم أكن اقوى منك فــأدعو خدمى .

ــ حســن ! هيا نادهم وسنرى .

ونادى صاحب الحانة ، فدخل للتو ثلاثة من الخدم الذين كانوا

على علم بالأمر ، وفي يد كل منهم عصا . وانسحب العامل صامتا رغما عن رغبته في المقاومة . وهكذا خرج من الحانة ، وتجول بعض الوقت في ارجاء المدينة . ولما حان وقت العشاء دخل مطعما حقيرا اعتاد العمال ان يتناولوا طعامهم فيه . ولم يكد يفرغ من التهام حسائه حتى دخل العمال الذين انتهوا من عملهم اليومي . فلما ابصروه توقفوا عند عتب الباب ، ودعوا اليهم صاحب المحل وافهموه انهم سوف يتركون محله اذا بقى هذا الرجل يأكل فيه. ولما استفسر صاحب المحل عما فعله الرجل : حتى أصبح هكذا مغضوبا عليه من الجميع ، أخبروه انه هو الذي صفع هنري الرابع. عندئذ تقدم منه صاحب المطعم وقال له : اذن اخرج من هنا وليكن ما أكلته سما زعافا . وكانت فرصة المقاومة في هذا المطعم أضعف منها في الحانة ، فنهض العامل الملعون وهو يتهدد زملاءه الذين افسحوا له الطريق لا خوفا من تهديداته ، ولكن بسبب ما اقترفه من جرم قبيح .

وهكذا خرج الرجل والحقد يغلي في صدره ، وجال في شوارع سان دنيس شطرا من الليل دون هدف ، وهو يلعن الأديان ، ويقسم بأفحش الايمان . وفي حوالي العاشرة توجه الى منزله . وعلى خلاف المعتاد ، وجد الأبواب مغلقة ، فقرع الباب ، وظهر المؤجر في النافذة . ولما كانت الليلة حالكة الظلام فانه لم يستطع التعرف عليه فسأله : من انت ؟

فذكر العامل اسمه .

فقال المؤجر : آه ! انت الذي صفعت هنري الرابع . انتظر.

فأجاب العامل وقد عيل صبره : ماذا ! ماذا انتظر ؟

وفي نفس اللحظة سقطت ربطة بجوار قدميه .

— ما هذا ؟

— كل ما يخصك في هذا المنزل .

— كيف ذلك ! كل ما يخصني في المنزل ؟

— نعم ، عليك ان تنصرف وترقد في أي مكان يحلو لك ، فانا لا اريد أن ارى المنزل يسقط فوق رأسي .

فاستشاط العامل غضبا وتناول حجرا ورمى به باب المنزل .

فقال المؤجر : انتظر ، ساوقظ رفاقك وسوف نرى ما يحدث .

وفهم العامل انه لن يلقى اي خير اذا انتظر ، فانسحب . وعلى بعد مائة خطوة وجد بابا مفتوحا فدخل منه ووجد نفسه تحت

سقيفة ، ووجد قشا فرقد عليه ونام . وقبل منتصف الليل بربع ساعة خيل اليه أن شخصا يمس كتفه ، فاستيقظ ورأى امامه جسما ابيض فى شكل امرأة أشارت اليه ان يتبعها . فظن انها من اولئك النسوة اللاتى يقدمن المأوى والمتعة لمن يدفع لهن الثمن . ولما كان معه نقود ، ويود ان يقضي ليلته في مكان مغلق ، ويرقد على سرير بدلا من ان يرقد على قش تحت سقيفة ، فقد نهض وسار وراء المرأة . ومشت المرأة بعض الوقت بحذاء المنازل القائمة على الجانب الأيسر من الشارع الكبير ، ثم عبرت الشارع ، وسارت فى حارة الى اليمين ، واشارت الى العامل ان يتبعها . ولما كان هذا قد اعتاد مثل هذه المناورات الليلية ، ويعرف بالتجربة الطرقات التي يقطن فيها مثل هؤلاء النسوة ، فانه لم يبد أي اعتراض ، وسار في الطريق الذي انتهى الى الحقول ، فظن أن المرأة تقطن في بيت منعزل فتبعها . وبعد مسيرة مائة خطوة اجتاز نغرة في الطريق ، ثم رفع عينيه فرأى امامه فجأة كنيسة سان دنيس القديمة بناقوسها الضخم ونوافذها الملونة قليلا باللهب الداخلى الذى كان الحارس ساهرا بجواره . وجال ببصره يبحث عن المرأة ، ولكنها كانت قد اختفت . ووجد نفسه في المقبرة . وأراد ان يعود أدراجه فيمر من الثغرة ، ولكن خيل اليه أنه يرى على الثغرة شبح هنرى الرابع مادا اليه ذراعه يتهدده . وتقدم الشبح منه خطوة فتقهقر العامل خطوة ، ثم أخرى . وعند الخطوة الرابعة أو الخامسة مادت الارض تحت قدميه فسقط في الحفرة . وعندئذ أبصر كل هؤلاء الملوك من اجداد هنرى الرابع وأحفاده ينتصبون حوله . وخيل اليه أن بعضهم يرفع عليه صولجاناتهم ، والبعض الآخر يمد نحوه يد العدالة ، والكل يصيحون: « تعسا لك أيها المعتدى الاثيم » . وخيل اليه أنه يلمس أيدى العدالة والصولجانات الثقيلة الملتهبة ، فتتهشم اعضاء جسمه الواحد بعد الآخر .

وفي تلك اللحظة دقت الساعة مؤذنة نصف الليل ، وسمع الحارس صيحات الألم .

وفعلت كل ما بوسعي لتهدئة هذا التعس ، ولكنه فقد الصواب . وبعد ان استمر يهذى ثلاثة أيام قضى نحبه وهو يصيح : الرحمة !

قال الطبيب : عفوا ، ولكن لا أفهم تماما نتيجة قصتك هذه ،

فما حدث لهذا العامل يثبت الآتي : ان ذهنه كان منشغلا بما حدث له نهارا سواء وهو في الحالة اليقظة او وهو يسير نائما ، فقد راح يتجول ليلا حتى دخل المقبرة ، ولما كان ينظر في الهواء بدلا من أن ينظر تحت قدميه فانه سقط في الحفرة بطبيعة الحال فانكسر ساقه وذراعه . والآن وقد تحدثت عن نبوءة تحققت ، فاين ياترى النبوءة في كل ماقصصت ، حتى ولو كانت نبوءة صغيرة !

فقال الشفاليه : انتظر يا دكتور . ان القصة التي حكيتها الآن ، وهي حدث واقعي ومادي كما تقول ، تؤدي مباشرة الى النبوءة التي سوف أرويها لكم والتي هي سر غامض . واليكم هذه النبوءة :

في حوالي ٢٠ من يناير عام ١٧٩٤، بعد ان هدمت مقبرة فرنسوا الاول ، فتح ضريح الكونتيس دي فلاندر ابنة فيليب الطويل ، وكان هذان القبران هما الاخيران اللذان بقيا وفتحا بعد أن تهدمت كل الاقباء ، واصبحت الاضرحة كلها خاوية والعظام كلها في مستودع العظام . وبقي ضريح اخير لا يعرف مكانه ، هو ضريح الكردينال ريتز الذي قيل انه دفن في سان دنيس .

واعيد غلق الأقباء كلها ، أو معظمها ، قبو أسرة فالوا ، وقبو أسرة شارل ، ولم يبق سوى قبو أسرة البوربون الذي كان يجب غلقه في اليوم التالي . وقضى الحارس ليلته الاخيرة في الكنيسة التي لم يبق فيها ما يستلزم حراسة ، ومن ثم أذن له بالنوم ، فنام . وفي منتصف الليل أيقظه عزف الارغون وصوت التراتيم الدينية ، فنهض وفرك عينيه وادار رأسه نحو المحراب حيث مصدر الاصوات . وعندئذ أبصر لدهشته مقاعد جوقة المرتلين وقد احتلها قسس كنيسة سان دنيس ، وأحد رؤساء الاساقفة يؤدي الطقوس الدينية ، والمصباح الجنائزي مضاء وتحته بساط الرحمة القطيفي المذهب الذي لا يغطي مادة سوى اجداث الملوك .

وفي اللحظة التي استيقظ فيها الحارس كانت الصلاة قد انتهت وبدأت طقوس الدفن . فتسلم رسل الحرب الصولجان والتاج ويد العدالة ، وكانت موضوعة على وسادة من القطيفة الحمراء ، وقدموها الى ثلاثة أمراء تناولوها . وفي الحال تقدم الشرافالجلس فلم يسمع لوقع اقدامهم في القاعة اي صوت ، وكانهم يتزلقون ، وتناولوا الجثة وحملوها الى قبو البوربون ، القبو الوحيد المفتوح ، بينما كانت الاقباء الاخرى قد اعيد غلقها . عندئذ نزل ... القبو

قائد الاسلحة ونادى على رسل الحرب أن ينزلوا ليؤدوا مهمتهم، وكانوا خمسة . ومن قاع القبو نادى قائد الاسلحة على الرسول الاول الذى نزل حاملا المهاميز ، ثم الثاني الذى نزل حاملا القفازات الحديدية ، ثم الثالث الذى نزل حاملا الدروع ، ثم الرابع الذى نزل حاملا الخوذات المدموغة ، ثم الخامس الذى نزل حاملا السترة المدرعة . وبعد ذلك نادى على الوصيف الأول الذى احضر العلم ، ثم ضباط الحرس السويسرى ورماة الحرس ومائتين من أشراف القصر وحامل الاسلحة الذى احضر سيف الملك ، والأمين الاول الذى احضر علم فرنسا ، ثم كبير الخدم الذى مر أمامه كل خدم المائدة بالقصر وهم يلقون بعصيهم البيضاء فى القبو . ويحيون عند مرورهم الأمراء الثلاثة حاملى العلم والصولجان ويد العدالة .

عندئذ صاح قائد الأسلحة ثلاثا بصوت مرتفع : « مات الملك ، يحيا الملك » وردد النداء الثلاثي واحد من رسل الحرب كان قد بقى فى المحراب .

واخيرا كسر رئيس الخدم عصاه رمزا لانتهاء الخدمة فى القصر الملكى . وفى الحال دقت الطبول وارتفع صوت الارغون . وبينما كانت دقات الطبول تضعف وصوت الارغون يخفت أخذت اضواء الشموع تبهت واجسام الحاضرين تختفي . ومع آخر ذبذبة فى صوت الارغون وآخر دقة من دقات الطبول ، تلاشى كل شيء .

وفى اليوم التالى قص الحارس وهو يبكى ما شهده فى حفل الدفن الملكى ، وكان الرجل الوحيد الذى حضره ، وتنبأ ان هذه القبور المشوهة سوف ترمم ، وانه على الرغم من قرارات المؤتمر الوطنى، واعمال المقصلة ، سوف تشهد فرنسا أسرة مالكة جديدة ، وترى سان دنيس ملوكا جددا . وادت هذه النبوءة بصاحبها الى السجن ، وكادت تنتهى به الى المقصلة . وبعد ثلاثين عاما ، أى فى ٢٠ من سبتمبر عام ١٨٢٤ ، قال لى ذلك المسكين ، خلف العمود الذى شهد عنده تلك الرؤيا ، قال وهو يجذب طرف ردائي . حسن ، ياسيد لينوار . هل كنت مخطئا حينما قلت لك ان ملوكنا المساكين سوف يعودون يوما الى سان دنيس ؟

وبالفعل ، دفن فى ذلك اليوم نفسه لويس الثامن عشر ، بنفس الطقوس التى رآها حارس القبور منذ ثلاثين عاما خلت .

ـ السر لنا هذا أيها الطبيب ..

لارتيفـــاى



(١٠) لارتيفاى

وسكت الطبيب ، اما لانه اقتنع ، واما لانه لم يجرؤ أن يعارض شخصا مثل الشفاليه لينوار . وافسح صمت الطبيب مجالا للتفسيرات ، فتقدم الاب مول فى هذا الميدان وقال :

ــ كل هذا يؤيد وجهة نظرى .

فسأله الطبيب وقد سره عودة الجدل مع مبارز اقل صلابة من السيد ليدرو أو الشفاليه لينوار : وما هى وجهة نظرك ؟

ــ اننا نعيش بين عالمين غير منظورين ؛ احدهما آهل بالأرواح الشريرة ، والثاني آهل بالارواح الربانية . ففي اللحظة التى يولد فيها كل منا ، يأتي روحان فيتخذان مكانيهما الى جانبيه ، ويظلان برفقته طوال حياته ، احداهما روح طيبة تهمس له بالخير ، والاخرى شريرة توعز له بالشر . وفى ساعة الموت تستولى عليه الروح التى تنتصر على الاخرى . وعلى ذلك تغدو أجسامنا فريسة لشيطان أو مقرا لملاك . ولنعتبر حالة سولانج المسكينة . لقد انتصر معها ملاك الخير ، وكان هو الذى ودعك يا ليدرو ، خلال شفاه الضحية الصامتة . وفى حالة اللص الذى حكم عليه القاضى الاسكتلندى بالاعدام ، كان الشيطان هو الذى استمر متسلطا على المكان ، وجعل يتردد على القاضى فى صورة قط . ثم ساع ، ثم هيكل عظمى . وفى القصة الاخيرة كان ملاك الأسرة المالكة هو الذى انتقم من المجرم الذى انتهك حرمة الموتى ودنس القبور ..

وهو الذى كشف لبصيرة الحارس المسكين مما هياه المستقبل لعودة الملكية ، كما يتجلى المسيح للناس المساكين . وقد تكشفت له النبوءة ، فخيل اليه انه يشهد حفلة رائعة حضرها كل رجال المستقبل من بلاط لويس الثامن عشر .

فقال الطبيب : ولكن ياسيدى القس ، كل نظرية لابد على أية حال أن تقوم على عقيدة .

— دون شك .

— وهذه العقيدة ، لابد أن تعتمد على حدث ، حتى تكون حقيقية .

— وعقيدتى هذه تعتمد على واقعة .

— قصها عليك شخص تثق به ؟

— بل حدثت لى بالفعل .

— آه ! أيها القس ، الينا بالواقعة .

— بكل سرور . ولدت فى ذلك الجزء من ضياع الملوك السابقين الذى يسمى الآن مقاطعة «ليزن» ، وكان يسمى فيما مضى « ايل دوفرانس » . وكان أبى وأمى يعيشان فى قرية صغيرة تسمى « فليرى » وسط غابة « فيلير كوتيريه » . وكان لأبى ، قبل أن أولد ، خمسة أبناء ، ثلاثة ذكور ، وبنتان ، ماتوا جميعا ، ومن ثم نذرت امى ، حين حملتنى ، ان تلبسنى ثيابا بيضاء حتى أبلغ السابعة ، ونذر ابى أن يحج الى « نوتردام دو ليبيس » . ولم يكن هذان النذران بالشىء النادر فى الاقليم ، وبينهما علاقة مباشرة ، فاللون الابيض هو اللون الذى تختص به العذراء ، ولم تكن « نوتردام دو ليبيس » سوى العذراء مريم .

ولسوء حظى مات أبى وانا فى بطن امى ، وكانت أمى سيدة متدينة ، ولذلك صممت على الوفاء بالنذرين كاملين ، فما أن ولدت حتى البستنى الثياب البيض من راسى الى قدمى . وما أن أصبحت قادرة على السير حتى أدت الحج المقدس المنذور سيرا على الاقدام . وكانت كنيسة « نوتردام دو ليبيس » لحسن الحظ على بعد خمسة عشر أو ستة عشر فرسخا من قرية فليرى ، فوصلت اليها والدتى على ثلاث مراحل . وهناك ادت صلواتها ، واستلمت من يد راعى الكنيسة أيقونة فضية علقتها على عنقى .

وبفضل هذين النذرين اصبحت بمأمن من علل الطفولة . وعندما ادركت سن البلوغ وجدتنى أميل الى البيئة الكنسية ، اما بسبب ثقافتى الدينية التى تلقيتها ، واما بتأثير الايقونة . ولما أتممت دراساتى بمدرسة « سواسون » الاكليركية ، تخرجت عام ١٧٨٠

وعينت قسيسا في « ايتامب » . وشاءت الصدفة أن ألحق بكنيسة نوتردام ، احدى كنائس ايتامب الاربع ، وهي من الروائع التي خلفها العصر الروماني للقرون الوسطى ، شيدها « روبير القوي » ولم يتم بناؤها الا في القرن الثاني عشر ، وما زال بها الى الآن لوحات زجاجية مدهشة لابد انها كانت ، وقت بناء الكنيسة ، متناسقة مع الرسوم والنقوش الذهبية التي كانت تغطي أعمدتها وتحلي تيجانها . وكنت في طفولتي مغرما بتلك المجموعات الزاهرة من الجرانيت التي استخرجت من باطن الارض ، بقوة الايمان ، لتغطي أرض فرنسا ، من القرن العاشر حتى السادس عشر ، فرنسا ابنة روما الكبرى ، بغابة من الكنائس ، التي توقف بناؤها حين زال الايمان من القلوب ، بعد ان قتلته سموم لوثر وكلفن .

وكنت وانا طفل العب في اطلال « سان جان دوسواسون » وأمتع النظر بجمال هذه النقوش التي تشبه الزهور الذابلة . فلما رايت « نوتردام دي اتامب » شعرت بالسعادة ، لأن الصدفة أو العناية الربانية قد وهبتني مثل هذا العش البديع اللائق بعصفور الجنة ، أو السفينة اللائقة بالكيون (١) .

وهكذا كانت أوقاتي السعيدة هي تلك التي امضيها في الكنيسة — ولا أقول ان الشعور الديني الخالص هو الذي يبقيني بها ، لا ، انما هو الشعور بالراحة ، شعور الطائر الذي يخرجه انسان من جهاز بدأ تفريغ الهواء به فيطلقه في الهواء ويمنحه الحرية . وكان عالمي محدودا بأبواب الكنيسة ، وحريتي أن استغرق في التأمل لساعتين ، جاثيا على ركبتي امام قبر ، أو معتمدا بمرفقي على عمود . فيم كنت اتأمل ؟ ليس بالطبع في دقائق علوم الدين ، كلا ، بل في الصراع الابدي بين الخير والشر ، الصراع الذي يتجاذب الانسان منذ أن زل .

كنت اتأمل الملائكة الجميلة ذوات الاجنحة البيضاء ، والشياطين البشعة ذوي الوجوه الحمراء التي تلمع صورها على اللوحات الزجاجية كلما وقع عليها شعاع الشمس ، فبعضها يتألق بالانوار الربانية ، والبعض الاخر يشتعل بنار جهنم . كانت كنيسة

---

(١) من شخوص الاساطير الاغريقية ـ المترجم .

« نوتردام » هي مقامي ، فيها عشت وفكرت وصليت . أما البيت الصغير الذي خصص لي فلم يكن بالنسبة الى اكثر من مسكن وقتي ، اطعم وأنام فيه فحسب . ولم اك ابرح كنيستي الجميلة « نوتردام » فى اغلب الاحيان الا فى منتصف الليل ، أو فى الساعة الواحدة صباحا . وكان الناس كلهم يعلمون انني اذا لم اكن فى بيتي الكهنوتي فانني أكون فى الكنيسة ، فيأتون ثمة لزيارتي .

ولم يكن يطرق مسامعي الا القليل من ضجيج العالم ، وانا محبوس فى هذا المحراب ، محراب الدين ، ومحراب الشعر بنوع خاص . ومن بين هذا الضجيج ، برز امر واحد كان يشغل أذهان الناس كلهم ، صغيرهم وكبيرهم ، أهل الدين وأهل الدنيا : فقد تعرضت مجاورات ايتامب لاعتداءات احد خلفاء « كارتوش وبولاييه » أو بالاحرى أحد منافسيهما ، اقتفى بجرأته آثار اسلافه ، لص كان يسطو على كل شيء ، وبخاصة على الكنائس . واسمه « لارتيفاى » .

وثمة شيء جعلني أهتم بمغامرات هذا اللص بنوع خاص ، ذلك أن زوجته التي تعيش فى بلدة ايتامب السفلي ، كانت تواظب على زيارتي والاعتراف لي ، وهي امرأة شجاعة فاضلة . وكان ضميرها يؤنبها بسبب ما يرتكبه زوجها من آثام تعتبر نفسها مسئولة عنها امام الله بصفتها زوجته . لذلك كانت تمضي أوقاتها فى الصلاة والاعتراف ، لعلها تخفف بأعمالها الصالحة من أوزار زوجها . أما هو ، فقد قلت لكم انه لص لايخاف الله ولا الشيطان ، ويزعم أن المجتمع فاسد ، وانه مبعوث الى الارض ليصلحه ، وان التوازن فى توزيع الثروات سوف يتم على يديه ، وانه ليس الا بشيرا لشيعة سوف تظهر ذات يوم فتدعو الى ما يطبقه هو الآن ، اي اشتراكية المال .

وقد قبض عليه مرارا ، وسيق الى السجن ، وفى كل مرة تقريبا ، يجدون غرفة سجنه ، بعد الليلة الثانية او الثالثة ، خاوية . ولما لم يتمكن احد من كشف سر هذا الفرار المتكرر ، قيل انه اكتشف العشب الذي يقطع الحديد .

وعلى ذلك كان في هـذا الرجل اعجوبة من الاعاجيب . واقر انني لم افـكر في هـذا الا عندما جاءتني المراة المسكينة تعترف لي بجرائمه الفظيعة وتلتمس نصيحتي . وعندئذ اشرت اليها ان تستخدم كل نفوذها على زوجها لترده الى طريق الصواب ولـكن نفوذ المراة المسكينة عليه كان ضعيفا للغاية ، فلم يبق لها سوى طريق واحد ابدي ، طريق الصلاة ، والتماس العفو والغفران .

واقتربت اعياد الفصح عام ١٧٨٣ ، وكانت ليلة الخميس قبل الجمعة المقدسة . وفي يوم الخميس سمعت الـكثير من الاعترافات حتى شعرت بالتعب في حوالي الثامنة مسـاء ، فغفوت في مكان الاعتراف . ورآني امين مخزن الـكنيسة وانا انام ، وكان على علم بعاداتي ، ويعرف أن معي مفتاحا لباب الـكنيسـة ، ولذا لم يفكر في ايقاظي ، فقد حدث لي مثل هـذا مئات المرات . وهكذا نمت . وبينما انا نائم سمعت رنينا مزدوجا ، احـدهما رنين مطرقة الناقوس البرونزية تدق الثانية عشرة ليلا والثاني وقع اقدام تدب على البلاط .

وفتحت عيني وتأهبت للخروج من مكان الاعتراف . وعنـدئذ خيل الي انني ارى خلال أشعة القمر التي كانت تنفذ من زجاج احدى النوافذ رجلا يمشي بحذر متلفتا حوله عند كل خطـوة يخطوها ، ومن ثم ادركت انه ليس من معـاوني الـكنيسـة ، أو القواس أو المرتل او احد المترددين ، ولـكنه دخيل جاء بنيـة شريرة .

واتجه الزائر الليلي نحو المحراب ، ولمـا بلغه توقف لحظة ، ثم سمعت ذلك الصوت الجاف الذي ينتج من احتكاك الحديد بحجر النار، ورايت وميض شرارة والتهاب قطعة من الصوفان أضاءت شمعة موضوعة على المذبح . وفي ضـوء الشمعة أمكنني ان ارى رجلا متوسـط القامة ، في منطقته مسدسان وخنجر ، له وجه ساخر اكثر منه مخيف . وبدا عليه انه قد اطمأن تماما بعد أن القى نظرة فاحصة على كل المساحة التي تضيئها الشمعة ، ومن ثم اخرج من جيبه شيئا كحزمة الالات التي تقوم بعمل المفاتيح ، واستعان بها في فتح دولاب المحراب ، فاخرج أولا صندوق المخلفات

المقدسة ، وهو قطعة جميلة من الفضة القديمة المنقوشة في عهد هنري الثاني ، ثم شعاع القربان المقدس الذي أهدته الملكة ماري انطوانيت الى المدينة . ثم قنينتين من الفضة المذهبة . ولما كانت هذه الاشياء هي كل محتويات الدولاب ، فقد أعاد غلقه بعناية، وركع على ركبتيه ليفتح الجزء الاسفل من المحراب ، الذي يضم المخلفات المقدسة ، وبه تمثال من الشمع للعذراء عليه تاج من الذهب والماس ، يلفه رداء مطرز بالاحجار الكريمة . وبعد خمس دقائق فتح الجزء السفلي من المحراب بمفتاح مزيف ، وكان في مقدوره على أية حال ان يحطم جدرانه الزجاجية . وحين شرع في ضم الرداء والتاج الى شعاع القربان المقدس والقنينتين ووعاء القربان المقدس ، خرجت من مكاني وتقدمت صوب المحراب ، وفي عزمي ان امنع هذه السرقة .

وتلفت اللص حين سمع صوت الباب وهو ينفتح ، ومال ناحيتي وحاول ان يخترق ببصره ظلام الكنيسة ، ولكن مقصورة الاعتراف كانت خارج نطاق الضوء ، فلم يرني الا حينما دخلت في الدائرة التي ينيرها لهب الشمعة المتذبذب . ولما لمحني ، اتكأ على المحراب واخرج من حزامه مسدسا صوبه نحوي . ولكنه ادرك من ردائي الاسود الطويل انني لست سوى قسيس بسيط لا خطر منه ، لا يحميه الا الايمان ولا سلاح له غير الكلام. وعلى الرغم من تهديد المسدس ، تقدمت حتى درجات المحراب ، وقلبي يحدثني أنه اذا اطلق النار فاما أن تخيب الرصاصة اوتنحرف. ووضعت يدي على الايقونة وشعرت بحب العذراء القدسي يغمرني

وبدا اللص كأنه قد تأثر من هدوء القس المسكين ، وقال لي بصوت حاول أن يجعله ثابتا : ماذا تريد ؟

— هل انت لارتيفاي ؟

— بلا شك ، ومن غيري يجرؤ على اقتحام الكنيسة وحده ؟

— يا لك من آثم جبار ، يتباهى باثمه ، الا تعلم انك بما تقترف تخسر جسمك كما تخسر روحك ؟

فقال ساخرا : آه ! أما جسمي فقد أنقذته مرارا ، وآمل أن انقذه مرات اخرى ، وأما روحي ..

ــ حسن ! وروحك ؟

ــ هــذا من شـــأن زوجتي ، فهي قديسـة ، في مقدورها أن تنقذ روحي وروحها في وقت واحد .

ــ صدقت ، فزوجتك يا صديقي امرأة صالحة ، ولا شك أنها سوف تموت كمدا اذا علمت انك ارتـكبت الجرم الذي كنت على وشك ارتـكابه .

ــ اوه ! اوه ! اتظن ان زوجتي المسكينة ستموت كمدا ؟

ــ انا واثق من ذلك .

فانفجر اللص ضاحكا ومد يده الي الادعيـــــة المقدسة قائلا :

ــ حسن ! سوف ارتل اذن ؟

ولـكنني صعدت درجات المحراب الثـلاث وقبضت على ذراعه وقلت : « لا ، لن ترتـكب هـذا الاثم » .

ــ ومن ذا الذي يمنعني من ارتـكابه ؟

ــ انا .

ــ بالقوة ؟

ــ كلا ، بل بالاقناع ، ان الله لم يبعث رســله الى الارض ليستعملوا القوة ، وهي من خصـــائص البشر ، بل ليستعينوا بالاقنـاع الذي هو فضيلة سماوية . ياصديقي ، ان الامر لايعني الكنيسـة التي تستطيع ان تقتني اواني أخرى ، ولـكنه يعنيك أنت الذي لا تستطيع أن تنال الغفران عن آثامك . اياك وهـذا الاثم ياصديقي !

ــ آه ! هــذا الاثم ! أتظن اذن أيها الرجل الطيب انه هو الاول ؟

ــ لا ، بل أعلم انه العاشر أو العشرون أو الثلاثون ، ما أهمية ذلك ؟ ان عينيك كانتا مغلقتين حتي اليوم ، وسوف تتفتحان هذا المســاء ، هــذا كل ما في الأمر . الم تسمع عن رجل يدعى «بول» كان يحرس معاطف اولئك الذين رجموا القــديس « ايتين » ؟ حسن ! كان على عين هذا الرجل غشـاوة ، على حد قوله . وذات يوم سقطت الغشـاوة عن عينيه فأبصر ــ واصبح القديس «بول» ، نعم القديس بول العظيم المشهور .

— قل لى اذن ياسيدى القس ، ألم يشنق القديس بول ؟
— نعم .
— حسن ! ماذا افاد من ابصاره ؟
— لقد آمن بان الخلاص قد يكون أحيانا فى التعذيب ، وترك على الارض اسما موقرا . وهو الآن يتمتع بجمال الأبدية فى السماء .
— فى اى سن استطاع بول ان يبصر ؟
— فى الخامسة والثلاثين .
— لقد تخطيت هذا السن فانا فى الأربعين .
— ما زال فى الوقت متسع للتوبة . قال المسيح للص الاثيم وهما مصلوبان : « صل بكلمة واحدة ، وانا اخلصك » .
فقال اللص وهو ينظر الى : آه ، انت اذن متشبث بفضياتك ؟
— كلا ، بل اتشبث بروحك التى أريد ان انقذها .
— روحى ! انت تدخل ذلك فى روعى ، بل وتسخر منى !
— اتريد أن اثبت لك أن روحك هي التى أريد أن أخلصها ؟
— نعم ، آتني بهذا الاثبات ، يسرنى ذلك .
— بكم تقدر قيمة المسروقات التى سوف تستولى عليها الليلة ؟
. فقال اللص وهو ينظر باستحسان الى القنينة والكأس وشماع القربان المقدس وثوب العذراء : ايه ! ايه ! بالف دينار (١) .
— ألف دينار ؟
— اعرف أن هذا هو ضعف الثمن ، ولكن لابد من ضياع ثلثى القيمة ، فهؤلاء اليهود الشياطين لصوص .
— تعال معى الى المنزل .
— منزلك ؟
— نعم ، فعندى الف فرنك ، سوف اعطيها لك تحت الحساب .
— والألفان الاخران ؟
— الألفان الاخران ؟ حسن ! اعدك وعد قسيس بان اذهب الى بلدتى حيث تملك امى بعض المال ، فأبيع ثلاثة او اربعة افدنة من أرضها لأحصل على الالفى فرنك الاخرى ، فأعطيها لك .
— نعم ، تضرب لي موعدا ، وتوقعنى فى فخ ؟

(١) écu — عملة فرنسية قديمة كانت تساوى ثلاثة جنيهات — المترجم

فقلت له وأنا ابسط يدى نحوه : انت لا تؤمن بهذا الذى تقوله.
فقال واجما : هـذا صحيح ، فأنا لا أومن بذلك . ولكن أمك اذن غنية ؟

ــ أمى فقيرة .
ــ سوف تغدو معدمة ؟
ــ اذا قلت لها اننى سأخلص روحا فى مقـابل خرابها ، فانها سوف تباركنى ، ثم اذا لم يبق معها شىء ، فسوف تأتى وتقيم معى ، ويكون عندى ما يكفى لاثنين .
ــ قبلت ، هيا الى منزلك .
ــ هيا ، ولـكن انتظر .
ــ ماذا ؟
ــ ضع فى الصنـدوق كل الاشياء التى أخذتها منه واغلقـه بالمفتـاح ، فسوف يأتيك ذلك بالحظ السعيد .

وقطب اللص حاجبيـه كمن داخله الايمان رغم انفه ، واعاد الوعاءين المقدسين الى الصندوق واغلقه بعناية شديدة ، وقال : هلم !

فقلت له : ارسم اولا علامة الصليب .

وحاول أن يضحك ساخرا ، ولـكن الضحكة انقطعت من تلقائها. ورسم علامة الصليب .

فقلت له : والآن ، اتبعنى .

وخرجنا من الباب الصغير ، وفى اقل من خمس دقائق ، كنا فى منزلى . وفى الطريق ، على قصره ، بدت على اللص اشد حالات القلق ، فقد جعل ينظر حوله كأنه يخشى أن أوقعه فى كمين . ولما بلغنا المنزل توقف بالقرب من الباب وسألنى : حسن ! الالفه فرنك .

فأجبته : انتظر ..

وأشعلت شمعة من نار موقدى التى كانت تخبو ، وفتحت دولابا وأخذت منه كيسا ، وقلت له : ها هى ذى .

وأعطيته الـكيس .
ــ والآن ، متى أحصل على الالفى فرنك ؟

ــ امهلني ستة اسابيع .
ــ حسن .. اعطيك ستة اسابيع .
ــ والى من اسلمهما ؟
وفكر اللص برهة ثم قال : الى زوجتى .
ــ حسن !
ــ ولكن هل ستعرف من أين جاءت النقود او كيف حصلت عليها ؟
ــ لن يعرف ذلك احد ، لا هي ولا سواها . ولن تحاول أنت أن تقوم بأى عمل ضد كنيسة نوتردام دى اتامب او سواها من كنائس العذراء .
ــ أبدا .
ــ اتعد بذلك ؟
ــ اقسم بشرف لارتيفاى .
ــ انصرف يا أخي ، ولا تاثم بعد الآن .
وحييته باشارة من يدى تأذن له بالانصراف . وبدا عليه التردد برهة ، ثم فتح الباب بحذر واختفى . وركعت وصليت من أجل هذا الرجل . ولم اكد اتم صلاتى حتى سمعت قرعا على الباب ، فقلت دون أن التفت : ادخل . كان ثمة شخص قد رآني أصلي فتوقف عندما هم بالدخول ، وظل واقفا خلفي. ولما اتممت صلاتي ، استدرت فرايت لارتيفاي واقفا ثابتا لا يتحرك بجوار الباب ، وهو يضم حقيبته تحت ذراعه .
قال لي : هاك : انني ارد لك الالف فرنك .
ــ الألف فرنك ؟
ــ نعم ، واعفيك من الالفين الآخرين .
ــ ولكن ، أما زلت عند وعدك ؟
ــ نعم .
ــ لقد تبت اذن ؟
ــ لا أدرى ان كنت قد تبت أم لا ، ولكنى لا اقبل نقودك ، هذا كل ما هنالك .
ووضع الكيس على حافة الخوان . ثم توقف ، وبدا كأنه يريد

أن يسأل شيئا ، وشعرت انه يلقى صعوبة فى ان يخرج سؤاله من بين شفتيه ، وساءلتني عيناه ، فقلت له : ماذا تريد ؟ تكلم ياصديقى ، ان مافعلته الآن شيء طيب ، فلا تخجل من ان تعمل شيئا افضل منه .

فسألنى : اتخلص فى تعبدك للعذراء ؟

ـ اخلاصا شديدا .

ـ وتؤمن بانه بفضل وساطتها وشفاعتها ، يستطيع رجل مذنب أن ينال الغفران ، مهما كبر ذنبه ؟ حسن ! عوضا عن الثلاثة الآف فرنك التى اعفيتك من دفعها ، اعطنى شيئا من المخلفات المقدسة ، مسبحة أو صندوق مخلفات او ما شابه ، شيئا أستطيع ان الثمه ساعة موتى .

عندئذ فككت الأيقونة والسلسلة الذهبية التى كانت امى قد أحاطت بهما عنقى يوم ولادتى ، والتى لم تفارقنى منذ ذلك الحين ، واعطيتها للص .

ووضع اللص شفتيه على الايقونة وانصرف .

وانقضى عام دون أن اسمع شيئا عن لارتيفاى . لقد غادر ايتامب بلا شك ليواصل نشاطه فى جهة أخرى . وفى هذه الأثناء وصلنى خطاب من زميلى قس « فليرى » ينبئنى فيه أن أمى الطيبة فى شدة المرض وانها تدعونى الى جوارها . فحصلت على اجازة وسافرت اليها ، وامضيت ستة أسابيع ، أو شهرين اصلى واعتنى بامى حتى استردت صحتها ، وافترقنا بعد ذلك ، أنا مسرور وهى فى صحة جيدة . وعدت الى ايتامب ، ووصلت اليها فى مساء الجمعة ، ووجدت المدينة كلها مضطربة ، فقد قبض على اللص الشهير لارتيفاى فى نواحى اورليانز ، وحوكم فى محكمة المدينة التى ادانته وارسلته الى ايتامب ليشنق فيها ، اذ كانت ايتامب هى المسرح الرئيسى لجرائمه . وتم تنفيذ الحكم فى صباح هذا اليوم . هذا ما عرفته فى الشارع . ولكن عندما دخلت منزلى علمت شيئا آخر : فقد جاءت امرأة من البلدة المنخفضة صباح امس ، اى فى الوقت الذى وصل فيه لارتيفاى الى ايتامب لينفذ فيه الحكم ، واستفهمت أكثر من عشر مرات عن موعد

عودتي . ولم يكن الحاحها هذا يدعو الى الدهشة . اذ كنت قد ارسلت خطابا أعلن فيه عودتي . وكان وصولي متوقعا من لحظة الى أخرى .

ولم اك اعرف في البلدة المنخفضة سوى تلك المراة المسكينة التي سوف تترمل ، فعزمت على أن اذهب الى بيتها قبل ان أزيل الأتربة العالقة بحذائي . وكانت المسافة بين بيتي وبين البلده المنخفضة قصيرة للغاية . ودقت الساعة العاشرة مساء ، ومع ذلك كنت متيقنا من أن المراة المسكينة لن تنزعج من زيارتي لها في مثل هذا الوقت لشدة رغبتها في رؤيتي . وعلى ذلك نزلت الى الضاحية واستعلمت عن بيتها . ولما كان الجميع يعرفونها بتقواها ، فان أحدا لم يحملها ذنوب زوجها ولم يلصق بها العار لأعماله الشريرة . ووصلت الى باب بيتها ، وكانت ضلفته مفتوحة ، ولمحت خلال اللوحة الزجاجية تلك المراة المسكينة راكعة تصلي عند قدم السرير ، وكان واضحا ، من حركة كتفيها أنها تنتحب . وقرعت الباب ، فنهضت المراة واقبلت مسرعة ، وفتحت الباب وصاحت : آه ياسيدي القس! صدقني انه أنت . حين طرقت الباب فهمت انك الطارق . يا لسوء الحظ ، لقد جئت متأخرا فقد مات زوجي دون ان يعترف .

ــ مات اذن وهو في ضلال ؟

ــ لا ، بل بالعكس ، انا واثقة بانه مات مسيحيا تقيا في أعماق نفسه ، ولكنه أعلن أنه لن يقبل قسا سواك ، ولن يعترف الا لك ، او للعذراء وحدها .

ــ اقال لك ذلك ؟

ــ نعم ، قال ذلك وهو يقبل ايقونة للعذراء معلقة بسلسلة ذهبية في رقبته . واوصى بنوع خاص الا ينزع منه احد هذه الايقونة ، وقال انه اذا دفن ومعه هذه الايقونة فان الشيطان لن يتمكن من جسمه .

ــ أكان هذا كل ما قاله ؟

ــ لا ، بل قال لي أيضا ، عندما تركني متجها الى المشنقة ، انك سوف تصل هذا المساء ، وتأتي لرؤيتي حال وصولك . ولهذا انتظرتك .

فقلت لها مندهشا : أقال لك ذلك ؟

ـ نعم ، وكلفني فوق ذلك بصلاة أخيرة .

ـ أؤديها انا ؟

ـ نعم أنت .. قال لي ان أرجوك في اية ساعة تصل .. يا الهي ! كيف اجرؤ أن اقول لك هذا الشيء الذي سوف يسبب لك ألما شديدا ؟

ـ قولي ياسيدتي الفاضلة ، قولي ..

ـ حسن ! طلب مني ان ارجوك أن تذهب الى ساحة الاعدام ، وتصلي هناك تحت جثته ، من اجل روحه : خمس صلوات ربانية وخمسا للعذراء ، وقال انك لن تخيب رجائي هذا ياسيدي القس .

ـ صدق في هذا لاني سوف افعل ذلك

ـ آه .. كم انت طيب .

وتناولت يدي وارادت ان تقبلهما ، فسحبتهما وقلت : لا عليك ايتها المراة الطيبة ، تشجعي .

ـ ليمنحني الله الشجاعة ، ولن أشكو ياسيدى .

ـ الم يطلب شيئا آخر ؟

ـ كلا ..

ـ حسن ! اذا كانت هذه الرغبة هي الكفيلة وحدها بتهدئة روحه ، فان روحه سوف تنعم بالهدوء .

وخرجت . وكانت الساعة العاشرة والنصف تقريبا ، وكنا في اواخر شهر ابريل ، ولم تزل ريح الشمال باردة ، ومع ذلك فالسماء جميلة ، جميلة على الاخص في عيني الرسام ، والقمر سابح في بحر من الظلمات التي تملأ الافق . ودرت حول الأسوار القديمة التي تحيط بالمدينة ، ووصلت الى بوابة « باريس » ، وكانت هي البوابة الوحيدة في ايتامب التي تبقى مفتوحة بعد الساعة الحادية عشرة مساء . وكانت وجهتي في هذا التجوال ساحة كانت ولم تزل الى اليوم تشرف على المدينة كلها . ولم يبق اليوم من آثار المشنقة التي كانت قائمة وقتئذ على تلك الساحة الا ثلاث قطع من البناء الذي يدعم الأعمدة الخشبية التي كانت موصلة فيما بينها بكمرتين تكونان المشنقة .

وللوصول الى هـذه الساحة التي تقع إلى يسار السائر في الطريق من ايتامب الى باريس ، وبمين السائر من باريس الى ايتامب ، كان لابد من المرور عند قاعدة برج « جينيت » ، وهو بناء مرتفع يظهر أنه أقيم منعزلا فى هـذا السهل لحراسة المدينة . هـذا البرج ـ الذى لابد انك تعرفه أيها الشفالييه لينوار ـ حاول لويس الحادى عشر ان ينسفه فلم ينجح ، غير ان الانفجار قد شق جوف البرج فبدا كأنه يتطلع خلال فتحة واسعة فيه ، كالعين التى لا حدقة فيها ، الى المشنقة التى لايبدو منها سوى أطرافها. والبرج ماوى للغربان نهارا ، وقصر للبوم ليلا .

مضيت فى طريقي الى الساحة وسط صرخات البوم ، متبعا دربا ضيقا وعرا يخترق الصخر خلال شجيرات العوسج.

ولا يمكن أن أقول ان الخوف تملكني . فالانسان الذى يؤمن بالله ، ويتوكل عليه لايخاف شيئا ، ولكنى كنت مضطرب المشاعر. ولم تكن ثمة أصوات تسمع سوى الدقات الرتيبة الصادرة من طاحونة البلدة المنخفضة ، وصرخات البوم ، وصفير الريح خلال شجيرات العوسج . ودخل القمر فى سحابة قاتمة اضاء أطرافها بهالة بيضاء . ثم اختفى فيها . وخفق قلبي وخيل الى انني سوف ارى شيئا خلاف الذى جئت من أجله ، شيئا لا أتوقعه .

واخذت أصعد الطريق ، ولما وصلت الى ارتفاع معين بدأت أميز الاطراف العليا للمشنقة المكونة من ثلاثة اعمدة وكمرتين من خشب الأرز كما وصفتها آنفا . ومن الكمرتين تتدلى صلبان حديدية يربط بها المحكوم عليهم .

وابصرت جثة اللص التعس لارتيفاى ، كشبح متحرك تؤرجحه الريح فى الفضاء . وفجأة وقفت ، فقد شهدت المشنقة كلها من أطرافها العليا حتى قاعدتها السفلي ، ولمحت كتلة لا شكل لها تتحرك كأنها حيوان من ذوات الأربع ، فرقدت خلف صخرة ، وبدا لى هذا الحيوان أكبر من الكلب واضخم من الذئب .

وعلى حين غرة نهض الحيوان على قائمتيه الخلفيتين ، فادركت أنه ليس الا ذلك المخلوق الذى قال عنه افلاطون انه « حيوان خال من الريش وله قدمان » أي انه انسان . ترى ماذا يأتي

برجل تحت المشنقة في هذه الساعة ؟ اللهم الا اذا جاء بنفس طاهرة ليصلي ، او نفس شريرة ليرتكب اثما . وعلى اية حال فقد قررت الصمت والانتظار . وفي هذه اللحظة خرج القمر من الغمام الذي حجبه لحظة واطل على المشنقة بكامل ضيائه .

ورفعت عيني ، وعندئذ رايت الرجل بوضوح . واستطعت ان اميز الحركات التي يؤديها ، فقد تناول سلما ملقى على الارض واسنده الى العمود القريب من الجثة المدلاة ، ثم ارتقى السلم ، والتصق بالجثة فكون معها شكلا عجيبا اختلط فيه الميت بالحي وكانهما يتعانقان . وعلى حين غرة دوت في الجو صرخة هائلة ، ورايت الجسدين يهتزان ، وسمعت صوت استغاثة مختنقة ما لبثت ان اصبحت مبهمة . ثم انفصل احد الجسدين من المشنقة ، بينما ظل الثاني معلقا في حبلها يهز ذراعيه وساقيه .

كان من المستحيل أن أفسر ما حدث تحت هذه الآلة البشعة .. لقد حدث أمر خارق للعادة ، من فعل الانسان ، أو الشيطان ، أمر يتطلب المعونة والنجدة . وهرعت الى المشنقة ، وعند ظهوري اشتدت حركات الجثة المعلقة . اما الجثة التي انفصلت فقد ظلت ممددة تحت المشنقة بلا حراك . واسرعت اولا الى الرجل الحي فارتقيت درجات السلم وقطعت الحبل بمطواتي ، فسقط الجسد المعلق ، وقفزت انا الى الارض . وراح المشنوق يتلوى بتشنجات فظيعة ، اما الجثة الاخرى فقد ظلت ساكنة لا تريم .

وادركت أن عقدة الحبل ما زالت تضغط على رقبة التعس فرقدت فوقه لامنعه من الحركة ، وحللت بصعوبة العقدة التي كانت تخنقه . وفي هذه الأثناء ، اضطررت الى تأمل وجه الرجل ودهشت حين عرفت انه نفس الجلاد . وقد جحظت عيناه ، وازرق وجهه ، والتوى فكه ، وجعل يتنفس بصعوبة تنفسا شبيها بالحشرجة . . على ان الهواء اخذ يدخل شيئا فشيئا الى رئتيه فتدخل معه الحياة الى جسمه . واسندته الى حجر كبير . وبعد لحظة بدا انه يستعيد حواسه ، فسعل وادار رقبته وراح ينظر وجهي ، ولم تكن دهشته باقل من دهشتي .

ــ أوه ! اوه ! هذا انت ياسيدي القس ؟

ـ نعم ، هو انا .
ـ ماذا جئت تفعل هنا ؟
ـ وماذا تعمل انت هنا ؟

وبدا عليه انه يستعيد حواسه ، وراح مرة أخرى ينظر حواليه، ولكن عينيه توقفتا هذه المرة على الجثة الميتة ، فحاول النهوض قائلا : آه ، لننصرف ياسيدي القس ، بحق السماء لنرحل .

ـ انصرف انت ياصديقي اذا شئت ، اما أنا فامامي واجب أؤديه .
ـ هنا ؟ ..
ـ نعم هنا ! ..
ـ ما هو اذن ؟

ـ هذا التعس الذي شنقته اليوم ، طلب مني ان آتي لاصلي عند قاعدة المشنقة خمس صلوات ربانية وخمس صلوات للعذراء لكي تهدأ روحه .

ـ لكي تهدأ روحه ؟ آه ، ياسيدي القس ، ان امامك مهمة شاقة اذا أردت ان تنقذ تلك الروح ، انه ابليس بعينه .

ـ كيف ! ابليس بعينه ؟
ـ بلا شك ، الم تر ما فعله بي ؟
ماذا فعل بك ؟
ـ يا الهي ! لقد شنقني !

ـ شنقك ؟ ولكن يبدو لي انك انت الذي اديت له هذه الخدمة المؤلمة !

ـ هذا صحيح ! ومع ذلك فاني ظننت انني شنقته بالفعل ، ويبدو انني اخطأت ! ولكن لماذا لم ينتهز فرصة ربطي انا أيضا في المشنقة فيهرب ؟

وذهبت الى الجثة ورفعتها قليلا فوجدتها باردة متصلبة .
فقلت : ذلك لأنه ميت .

فقال الجلاد : ميت ! ميت ! آه ، يا للشيطان ، هذا أمر أسوأ ، لنهرب اذن أيها القس ، لنهرب .

ونهض ، ثم قال : لا والله ، انا افضل ان أبقى . إما هو فسوف ينهض ويجري خلفي . ولكنك على الأقل هنا ، وانت رجل تقي ، سوف تدافع عني .

فقلت للجلاد وأنا أمعن النظر في وجهه : ياصديقي ، هناك سر وراء كل هذا . سألتني منذ برهة عن السبب الذي دعاني الى الحضور هنا في هذه الساعة . وانا بدوري أسألك عما جاء بك الى هنا .

ـ آه ! حقا ياسيدي القس ، يجب ان اقول لك ذلك ، سواء كاعتراف ، او كأي شيء آخر . حسن ! سأقص عليك ذلك بشكل آخر . ولكن انتظر حتى ..

واتى بحركة الى الوراء .

ـ ماذا اذن ..

ـ الا يتحرك هناك ؟

ـ لا ، اطمئن ، ان الشقي ميت تماما .

ـ اوه ! ميت تماما .. ميت تماما .. وما أهمية ذلك ! سأقول لك على اية حال السبب في مجيئي ، واذا لم أقل لك الحقيقة يكذبني هو .. هـذا كل شيء .

ـ قل ..

ـ يجب أن أقول لك ان هذا الكافر لم يقبل ان يعترف لأحد ، فكان يقول من وقت لآخر : « هل وصل القس مول ؟ » فكنا نرد عليه : « كلا لم يصل بعد » ، فيتنهد . وعرضنا عليه قسا آخر فأجاب : « لا ، القس مول ، ولا أحد غيره » .

ـ نعم ، أعلم ذلك ..

ـ وعند قاعدة برج جينيت ، توقف عن السير وقال لي : « انظر اذن ، الا ترى الأب مول قادما الينا » ؟ فقلت له : «لا» ، وواصلنا السير . وعنـد قاعدة السلم توقف أيضا وقال : ألم يحضر الأب مول ؟

ـ قلت لك لم يحضر !

وليس هناك ما يفقد الانسان صبره ، مثل الرجل الذي يكرر لك دائما نفس الشيء .

قال : هيا !

ولففت الحبل حول عنقه ، ووضعت قدميه على السلم وقلت له : « اصعد » . وصعد دون أن أكرر له الأمر ، وما أن وصل الى ثلثي السلم حتى قال :

ـ انتظر حتى أتأكد من عدم وصول الأب مول ..

ـ آه ! انظر ، هذا غير ممنوع .
ونظر لآخر مرة في الجمع المحتشد ، ولما لم يرك تنهد . وظننتا أنه قد اقتنع ، وانه لم يبق لي الا ان ادمعه . ولـكنه لمح حرلتي فقال : انتظر .
ـ ماذا أيضا ؟
ـ أريد أن اقبل ايقونة للعذراء معلقة في عنقي .
ـآه ! هذا عمل طيب ، قبلها .
ووضعت الايقونة على شفتيه وسألته : ماذا أيضا ؟
ـ اريد ان أدفن ومعي هذه الايقونة .
ـ هيه! هيه! اظن ان كل مخلفات المشنوق تصبح ملـكا للجلاد .
ـ لا شأن لي بذلك ، ولـكنني اريد ان ادفن مع ايقونتي .
ـ اريد ، اريد ! ما هذه اللهجة ؟
ـ هذا ما أريده ، ما شأنك أنت ؟
ونفد صبري ، كان كل شيء معدا ، فالحبل يطوق عنقه ، وطرفه مربوط في الحلقة .
فقلت له : « الى الجحيم » ، ودفعت به الى الفضاء .
ـ ايتها العذراء ، ارحمي ...
واقسم ان هــذا هو كل ما قاله ، اذ خنقه الحبل وقطع كلامه . وفي اللحظة نفسها ، وانت تعرف ذلك ، امسكت الحبل وقفزت فوق كتفي المشنوق ، فتاوه مرتين وانتهى الأمر ، ولم يكن هناك ما يشكوه مني ، وأقسم انه لم يتألم .
ـ ولـكن كل هذا لا يفسر السبب في مجيئك هنا هذا المساء .
ـ اوه ! هــذا هو الشيء الذى يصعب الاغضاء به .
ـ حسن ! سأقوله لك بنفسي ، انك اتيت لتأخذ الايقونة .
ـ نعم ، أغراني الشيطان ، فقلت لنفسي : حسن ، حسن ! أنت تريدها ، ما أسهل أن تقول ذلك . ولـكن صبرا حتى يأتي الظلام . فلما جن الليــل خرجت من المنزل ، وكنت اعرف مكان السلم فقد تركته في مكان قريب ، وتجولت قليلا ، ثم عدت مجتازا أطول الطرق ، ولما لم اعد أسمع أى صوت ، اقتربت من المشنقة واقمت السلم وارتقيته وجذبت المشنوق وانتزعت سلسلته ، و..
ـ وماذا ؟
ـ يا الهي ! صدقني اذا شئت : في اللحظة التي فارقت الأيقونة

عنقه امسكني المشنوق واخرج راســه من العقدة المربوطة . ووضع راسي في العقدة مكان راسه . ودفعني كما دفعته من قبــــل هذا ما حدث .

ـ مستحيل ، انت مخطيء .

ـ الم تجدني مشنوقا ؟ تـكلم .

ـ بلى ..

ـ حسن ' أؤكد لك انني لم اشــنق نفسي بنفسي ، هــذا كل ما اقوله لك .

وفــكرت لحظة ثم سالته : والايقونة ، اين هي ؟

ـ يا الهي ! ابحث على الارض . فلا بد ان تكون قريبة ، اذ تركتها عندما شعرت بانني مشنوق .

ونهضت . ونظرت الى الارض التي اضــاءها شعاع من القمر كأنه يرشــدني في بحثي . ووجدت الايقونة فالتقطتها وذهبت الى جثة لارتيفاى وثبت الايقونة على عنقه . وفى اللحظة التى مست فيها الايقونة صــدره أخذته رعشــة هزت كل جسمه ، وخرجت من صدره صرخة حادة مؤلمة ، فارتد الجلاد الى الوراء . واضاءت هذه الصرخة بصيرتي ، وتذكرت ما جاء بالـكتاب المقـدس من طـرد الشياطين بالصلوات . والصرخة التى تطلقها الشـياطين عندما تخرج من الاجسام الآدمية التى تسـكنها . واخذ الجلاد يرتجف كريشــة في مهب الريح . فقلت له :

ـ تعال يا صديقي ولا تخش شيئا .

فاقترب مترددا وقال : ماذا تريد مني ؟

ـ هذه الجثة يجب ان تعود الى مكانها .

ـ ابدا ، سوف يشنقني ثانية .

ـ ليس هناك اى خطر ياصديقي ، انني مسئول عما قد يحدث .

ـ ولـكن ياسيدي القس ! ياسيدى القس !

ـ أقول لك تعال .

وتقدم خطوة اخرى وتمتم : هيه ! انا غير مطمئن .

ـ انت مخطيء ياصديقي ، لا تخش شيئا طالما استردت الجثة ايقونتها .

ـ وما السبب في ذلك ؟

ـ لأن الشيطان لن يتمكن منه . فهذه الايقونة كانت تحميه ،

ولما انتزعتها انت منه ، دخلت جسمه فى اللحظة نفسها تلك الروح الشريره التى كانت تدفعه الى الاثم ، والتى كانت روحه الطيبه قد ابعدتها . وقد رايت بنفسك ما صنعت بك تلك الروح الشريره .

ــ اذن فهذه الصيحة التي سمعناها الآن ..

ــ هي صيحة الروح الشريرة عندما أحست أن ضحيتها قد أفلتت منها .

فقال الجلاد : حقا ، امن الممكن ان يحدث هذا ؟

ــ نعم ..

ــ اذن اعيده الى حبل المشنقة .

ــ نعم ، ارجعه ، من الواجب أن تاخذ العدالة مجراها ، ويتم تنفيذ حكم الاعدام .

وتردد التعس مرة أخرى فقلت له : لا تخش شيئا : أنا مسئول عن كل شيء .

ــ ومع ذلك لا تصرف نظرك عنى ، فاذا صحت تقدم لنجدتى .

ــ كن مطمئنا .

واقترب من الجثة ورفعها برفق من كتفيها وسحبها الى السلم وهويحدثها قائلا :

لا تخف يا لارتيفاى ، انني لا افعل هذا لاخذ ايقونتك . انك تنظر الينا ياسيدى القس ، أليس كذلك ؟

ــ نعم ، اطمئن .

واستمر الجلاد يقول بلهجة مسالة : لا افعل هذا لاخذ أيقونتك ، لا ، اطمئن ، سوف تدفن معها ما دامت هذه رغبتك . حقا ياسيدى القس ، انه لا يتحرك .

ــ انت ترى ذلك .

ــ سوف تدفن معها ، وحتى ذلك الحين ، ساردك الى مكانك كما يريد القس المحترم ، اما بخصوصى ، فأنت تفهم ..

فقلت له وأنا لا اتمالك نفسي من الابتسام : نعم ، نعم ، ولكن أسرع .

ــ بالتاكيد ، لقد تم الأمر .

قال ذلك ، وترك الجثة التى علقها ثانية فى حبل المشنقة وقفز للحال الى الارض . واخذت الجثة تتارجح فى الفضاء ،

جامدة ميتة . وجثوت على ركبتي وشرعت اصلي الصلوات التي طلبها مني لارتيفاي . وجثا الجلاد بجانبي وقال : سيدي القس ، اتسمح أن تقرأ الصلوات بصوت مرتفع وببطء ، حتى استطيع أن اردها معك ؟

ــ كيف ذلك أيها التقي ، هل نسيتها ؟

ــ اعتقد انني لم اعرفها على الاطلاق .

وقرأت الصلوات الربانية الخمس ، وصلوات العذراء الخمس ، ورددها الجلاد خلفي بكل دقة .

ولما انتهت الصلاة نهضت وقلت للمشنوق بصوت منخفض : لارتيفاي ، لقد فعلت كل ما في استطاعتي لتهدئة روحك ، وعلى سيدتنا العذراء أن تتكرم باتمام الباقي .

فقال رفيقي : آمين !

وفي هذه اللحظة أضاء الجثة شعاع من القمر ، كالسيل الفضي ، ودقت ساعة كنيسة العذراء مؤذنة منتصف الليل ، فقلت للجلاد : هيا بنا ، لم يعد لدينا ما نعمله هنا .

فقال المسكين : سيدي القس ، هل تتفضل وتسدي الي معروفا آخر ؟

ــ اي معروف ؟

ــ ترافقني حتى منزلي ، فلن اطمئن حتى ارى بابي يغلق على دون هذا الشيطان .

ــ هلم ياصديقي ..

وغادرنا الساحة ، وكان رفيقي يستدير كل بضع خطوات ليستوثق من ان المشنوق لم يبرح مكانه . ولكن المشنوق كان ساكنا لايريم . وعدنا الى المدينة ، وسرت مع الرجل حتى منزله ، وانتظرت حتى اضاء مسكنه واقفل بابه وودعني شاكرا من خلف الباب . وعدت الى بيتي هادىء الجسم والبال . ولما صحوت في اليوم التالي ، قيل لي ان زوجة اللص تنتظرني في غرفة الطعام . وكان وجهها هادئا مبتهجا . وقالت لي :

ــ سيدي القس ، جئت لاشكرك ، فقد ظهر لي زوجي بالامس عندما دقت ساعة كنيسة العذراء الثانية عشرة ليلا وقال لي : « اذهبي في صباح الغد وقابلي القس مول ، وقولي له ان روحي قد نجت بفضله وبفضل سيدتنا العذراء » .

سوار من شعر



(١١) سوار من شعر

قال البيت : سيدي القس ، اننى اقدرك كل التقدير وابجل « كازوت » أعظم تبجيـــل ، وأعجب كل الاعجاب بقوم الروح الشريرة التى ذكرتها . ولــكن فاتك شيء ، شيء انا من أمثلته ، ذلك أن الموت لاينهى الحياة ، فالموت اســـلوب لتحول جســم الانسان ، انه يعدم الذاكرة فحسب ، فاذا لم تنعدم الذاكرة ، فسوف يتذكر الانسان تنقلات روحه كلها منذ نشأة العالم حتى وقتنا هذا . وما حجر الفلاسفة الا هذا السر نفسه . السر الذى اكتشفه فيثاغورس ، واكتشفه أيضا الـكونت ســان جرمان ، وكاليوسترو ، السر الذى املــكه انا بدورى ، ومضــــمونه ان جسدى سوف يموت ، كما اذكر انه مات من قبل اربع او خمس مرات ، واخطيء اذا قلت انه سيموت ، فهناك أجسام لاتموت ، منها جسمى انا .

فقال الدكتور : ياسيد البيت ، اتسمح لى أولا بشيء ؟

ـ اى شيء ؟

ـ أن نفتح قبرك بعد أن ينقضي شهر على وفاتك .

ـ شهر ، شهران ، سنة ، عشر سنوات ، وقتما تريد ياذكتور، ولــكن حذار .. لأن اى اذى تحدثه فى جثتى قــد يضر الجسد الآخر الذى سوف تــسكنه روحى .

ـ انت اذن تؤمن بهذه الخرافة ؟

ـ لقدنلت جزائي بهذا الايمان ... فقد رايت .

ـ ماذا رأيت ؟ . أحد هؤلاء الموتى الاحياء ؟

ـ نعم .

فقال الدكتور : ياسيد البيت ، احك لنا قصتك ما دام كل منا قد حكى قصته ، فمن العجيب أن تكون هــذه المسألة ظــاهرة أجتماعية حقيقية .

ـ حقيقية او غير حقيقية ، اليكم القصـــة بحذافيرها . كنت مسافرا من ستراسبورج الى ميـــــــاه لوتش . أتعرف الطريق يادكتور ؟

ـ لا ، ولـكن لا اهمية لذلك . استمر .

ـ سافرت اذن من ستراسبورج الى مياه لوتش ومررت طبعـا بمدينة بال حيث يجب أن اغادر المركبة العامة لأستقل عربة أجرة ولمـا وصلت الى فنـــدق « لاكورون » الذى اوصـــانى البعض بالنزول فيه . بحثت عن عربة وحوذى ، ورجوت صاحب الفندق أن يستفسر عما اذا كان فى المدينة من يتاهب للسفر فى نفس الطريق الذي سوف أسلـــــكه ، فيعرض عليه أن يرافقنى ، حتى تهون مشاق السفر ، وتقل مصاريفه . وفى المساء عاد الرجل وقد عثر على ضالتى : زوجة تاجر من بال ، فقـدت طفلهـا وعمره ثلاثة اشهر ، وكانت ترضعه بنفسها ، فمرضت مرضا شديدا نصح لها البعض بسببه ان تستشفى بمياه لوتش . وكان هـذا الطفل هو أول ثمرة لهذا الزواج الذى انعقد منذ عام .

واخبرنى صاحب الفندق انه كان من العسير حمل هذه المرأة على فراق زوجها ؟ فقد صممت على أن تبقى فى بال ، أو يسافر معها زوجها الى لوتش . على أن حالتها الصـــــحية كانت تدعو الى الاستشفاء بمياه لوتش ، فى حين ان تجارة الزوجين تتطلب بقاءها فى بال . وأخيرا قر قرارها وسافرت معى فى صباح اليوم التالى، ومعها خادمتها . وكان معنا أيضا قسيس كاثوليكى ملحق بكنيسـة قرية صغيرة مجاورة ، شغل المحل الرابع بالمركبة .

وفى حوالى الثامنة صباحا جاءت العربة الى الفندق وبها القس، وصعدت اليها ، فانطلقت لأخذ السيدة وخادمتها . وشـــــهدنا ونحن بداخل المركبة وداع الزوجين، وداعا بدا من داخل مسكنهما ، واستمر فى متجرهما ، ولم ينته الا فى الطريق . ولاشك ان المرأة كان عندها احساس مســـبق بما سيحدث ، لأنها لم تستطع أن تتمالك شعورها ، كأنها ستقوم برحلة حول العالم ، لا برحـــلة لا تتجاوز الخمسين فرسخا . وبدا زوجها أكثر هدوءا منها ، ومع ذلك فان تأثره أقوى مما يقتضيه المنطق لمثل هذا الفراق. ورحلنا أخيرا . وتركنا بطبيعة الحال ، أنا والقسيس ، أفضـــل مكانين بالعربة للسيدة وخادمتها ، أى جلسنـــا فى المقدمة ، وتركنا لهما

المؤخرة . واتخذنا طريق « ســولير » ، وبتنا الليلة الاولى فى « منديشويل » . وظلت رفيقتنا طول النهار قلقة مضطربة . وفى المساء رأت عربة عائدة فارادت أن تعود فيهـا الى بال ، ولـكن خادمتها تمكنت من اقناعها بمواصلة السفر . وفى صبـاح اليوم التالى بدأنا السير فى حوالى التاسعة ، وكان النهار قصيرا ، ولم يكن فى عزمنا الذهاب الى أبعد من « سولير » . وفى المساء ، بدأنا نلمح المدينة فارتعدت المريضة وقالت :

ـ آه ! قفوا ! هناك من يتعقبنا .

ونظرت من خارج النافذة وقلت : أنت مخطئة ياسـيدتى ، فالطريق خال تماما .

ولـكنها اصرت قائلة : عجيب ! انني اسمع وقع حوافر حصان.

وظننت انني لم انظر جيـدا ، فاخرجت راسى من النافذة أكثر من ذى قبل ، ونظرت ، ثم قلت لها : لا احد ياسيدتى .

ونظرت هى بنفسها ، ورأت مثلما رأيت ان الطريق خال. وقالت وهى تلقى بنفسها الى داخل العربة : « لقد اخطأت » . واغلقت عينيها كما تفعل المرأة حين تريد أن تركز افـكارها فى نفسها. وفى اليوم التالى ، رحلنا فى الخامسة صباحا . وطال النهار يومئذ ، ومضى بنا السائق لنبيت فى « بيرن » فى نفس الساعة التى بتنا فيهـا فى اليوم السابق ، أى فى حوالى الخامسة . واسـتيقظت رفيقتنا من سبات كانت مستغرقة فيه ، ومدت يدها الى السائق قائلة :

ـ ايها السـائق . قف . فى هـذه المرة انا واثقة بنفسى : فهناك شخص يجرى وراءنا .

فأجاب السائق : انت مخطئة ياسيدتى ، فانا لا أرى سـوى الفلاحين الثلاثة الذين مررنا بهم منذ برهة ، وهم سـائرون فى طريقهم فى هدوء .

ـ أوه ! ولـكنني أسمع صوت حصان يركض .

قالت ذلك بلهجة ملؤها الثقة والايمان ، حتى اني لم اتمالك من النظر ورائى . ورأيت الطريق خاليا كما كان بالأمس .

قلت لها : مستحيل ياسيدتى ، فانى لا ارى اى فارس .

ـ كيف لا ترى اى فارس فى حين ارى بنفسى ظل رجل وحصان؟

ونظرت فى الاتجاه الذى تشير اليه يدها ورأيت بالفعل ظل حصان

وفارس ؟ ولكنى بحثت بعينى عبثا عن الأجسام التى تشكل هذه الظلال . وادليت بملحوظتي عن هذه الظاهرة الطبيعية الى القس ، فرسم علامة الصليب . واخذ الظل ينقشع تدريجيا وتزول معالمه لحظة بعد اخرى حتى اختفى تماما . ودخلنا برن .

وبدت هذه الدلالات شؤما على المراة ، واخذت تقول مرة بعد اخرى انها تريد العودة . ومع ذلك واصلت السفر .

ولما وصلنا الى « نون » وجدنا المريضة قد ساءت صحتها ، اما لاضطراب نفسيتها واما بسبب استفحال المرض ، حتى أصبح من الضرورى أن تواصل طريقها على محفة وهكذا اجتازت خاندرتال ، وجيمى . ولما وصلت الى لوتش ، ظهرت عليها اعراض الحمرة ، فقضت اكثر من شهر لا ترى ولا تسمع . ثم ان احساساتها السابقة لم تخدعها ، اذ ما كادت تقطع عشرين فرسخا (منذ بدء رحلتها) حتى كان زوجها قد اصيب بحمى مخية . واستفحل مرضه سريعا ، ولما شعر بخطورة حالته ، بعث فارسا ليخطر بالأمر زوجته ويدعوها للعودة . ولكن الحصان نفق فى الطريق بين « لوفن » و « برنتنباش » ، ووقع الفارس فارتطم رأسه بحجر ، واضطر الى البقاء فى فندق ، فلم يستطع ان ينجز من الرسالة التى كلف بادائها سوى أن يخطر من بعثه بما حدث له وعندئذ أرسل البعض رسولا آخر ، الا ان القدر كان للجميع بالمرصاد ، فعند مشارف خاندرتال ، ترك الرسول حصانه ، واستصحب دليلا لاجتياز سهل « شوالباش » الذى يفصل « اوبرلاند » عن « فاليه » . وفى منتصف الطريق انحدر سيل من قمة جبل « اتل » وجرفه الى اعماق هاوية . ولم ينج الدليل نفسه الا بأعجوبة .

وفى هذه الاثناء ، اشتد المرض بصورة مزعجة ، واقتضى الامر حلاقة رأس المريض ، لشعره الطويل ، حتى يتسنى وضع الثلج على جمجمته . ومن هذه اللحظة بدا الرجل المحتضر يفقد كل امل فى الشفاء . وفى لحظة هدوء كتب لزوجته يقول : « عزيزتى برتا — اننى أموت ، ولكنى لا اريد أن افترق عنك بالكلية — اصنعى سوارا من الشعر الذى اجتثه البعض من رأسى ، والذى احتفظت به ، وليكن فى معصمك على الدوام . ويبدو لى بهذه الطريقة اننا سنكون دائما معا . زوجك فردريك » . وسلم

هذه الرسالة الى رسول ثالث كلفه ان يرحل بها بمجرد ان يسلم الروح .

وتوفى فى المساء نفسه ، ورحل الرسول بعد وفاته بساعة واحدة . وكان أسعد حظا من سابقيه ، فقد وصل الى لوتش فى نهاية اليوم الخامس ، ولكنه وجد المراة صماء عمياء . ولكنها بدأت تبرأ من هاتين العلتين بعد شهر واحد بفضل مياه الاستشفاء . ومر شهر آخر قبل ان يجرؤ احد على أن يخطر العليلة بهذا النبأ المؤلم ؟ ولكنها من جهة اخرى كانت متاهبة لسماع مثل هذا الخبر بما راته من خيالات . ومر بها شهر آخر قبل أن يتم شفاؤها . واخيرا عادت الى بال بعد غياب استمر ثلاثة اشهر .

ولما كنت انا ايضا قد اكملت استشفائى ، وخفت وطأة الروماتيزم الذى جئت بسببه أستشفى بالمياه ، فقد استأذنتها فى أن اصاحبها فى السفر ، فأذنت شاكرة ، وراحت تحدثنى عن زوجها الذى رايته قبلا ، برهة قصيرة ، وقت الرحيل .

وغادرنا لوتش ، ووصلنا بال فى مساء اليوم الخامس . ولم يكن هناك ما هو اشد ايلاما للنفس من عودة الأرملة المسكينة الى دارها . ولما كان الزوجان وحيدين فى هذه الدنيا ، وقد مات الزوج ، فقد اغلق المحل ، وتوقفت التجارة كما تتوقف الساعة عندما يتوقف الرقاص . وأحضر بعضهم الطبيب الذى كان يعالج المريض ، والأشخاص الذين شهدوا اللحظات الأخيرة فى حياته ، وجعلوا يستعيدون ذكراها ، وقد كادوا ينسونها . وطلبت منهم الارملة على اقل تقدير ، ذلك الشعر الذى أوصى به لها زوجها . وتذكر الطبيب انه كان قد امر بقص شعر المريض ، كما تذكر الحلاق انه حلق راسه ، وانتهى الأمر عند هذا الحد ، فالشعر كان قد القى به الى الرياح تذروه ، فضاع . وقنطت المرأة اذ استحال تنفيذ الرغبة الوحيدة التى ابداها زوجها المتوفى بأن تلبس سوارا من شعره .

وانقضت ليال ، حالكة تثير الشجن ، كانت الأرملة تجوس خلالها فى أنحاء المنزل ، كأنها شبح ، لا كائن حى . وكانت كلما رقدت ، وداعب الكرى اجفانها ، شعرت بخدر فى ذراعها اليمنى ، فلا تصحو الا فى اللحظة التى يخيل اليها فيها أن الخدر قد وصل

الى القلب . وكان هـذا الخدر يبدأ في المعصم . اي في المكان الذي كان يجب ان تلبس عنده سوار الشعر ، فتشعر بضغط في هـذا الموضع يماثل ضغط سوار ضيق من الحديد ، وينتقل الخدر كما قلتـا من المعصم حتى يصل الي القلب . وكان واضـحا ان الميت يبـدي أسـفه لعدم تنفيـذ رغبـاته . وادركت الأرملة هذا الأسف الذي يبديه زوجها ، ويشعرها به من قبره . فاعتزمت ان تفتح قبره ، حتى اذا وجـدت أن راس زوجـها لم يخلق تماما جمعت كمية من الشعر تكفى لتحقيق رغبته الأخيرة . وبناء على ذلك استدعت اللحاد ، ولم تخبر احـدا بما اعتزمت أن تفعله . ولـكن اللحاد الذي دفن زوجها ، قد توفى هو ايضا . اما اللحاد الجديد الذي باشر عمله منذ خمسة عشر يوما فقط فانه لم يكن يعرف مكان المقبرة . وكانت تأمل ان يهبط عليها وحي ، فقد آمنت بالمعجزات بعد أن شهدت أشبـــاح الحصان والفارس ، واحست بضغط السوار على معصمها ، ومن ثم ذهبت وحدها الى الجبانة، وجلست فوق اكمة مغطاة بالعشب الأخضر المعمر ، من ذلك النوع الذى ينمو على القبور ، وراحت تتذكر بعض العلامات التى يمكن أن تسترشـد بها في بحثها . وكانت على حائط الجبانة صورة تمثل رقصـة جنـائزية ، وتوقف نظرها عند صـورة الموت ، وثبتت عيناها على تلك الصـورة السـاخرة المرعبة . وعندئذ خيـل اليها ان الموت يرفع ذراعه المجرد من اللحم ويشير بعظمة اصـبعه الي مقبرة وسط المقابر الاخيرة ، فاتجهت مباشرة الي تلك المقابر، ولما صـارت عندها خيل اليها انها ترى الموت نفسه بوضـوح ، وقد ترك ذراعه تهوى الي موضـعه الاصلى، فرسمت علامة على المقبرة ، ومضت تبحث عن اللحاد حتي وجدته واتت به الي الموضـع الذى عينته وقالت له : احفر ، انه هنا .

وحضرت هـذه العملية . فقد اردت ان اتابع هـــذه المغامرة الغريبة حتى نهايتها . وحفر اللحاد . ولمـا وصل الي النعش رفع الغطاء . وتردد ، ولكن الأرملة قالت له بصوت حازم : «ارفع هذا نعش زوجى » . فأطاع ، اذ كانت المرأة قادرة على اقناع الآخرين بما تريد . وعندئذ حدثت معجزة شهدتها بعيني. فغضلا عن ان الجثة كانت لزوجها ، وتشبهه حال حياته ، مع شيء من

الاصفرار ، فانه منذ أن حلق راسه ، يوم وفاته ، نما شعره حتى خرج كالجذور من جميع شقوق التابوت .

عندئـــذ مالت المرأة المسكينة على الجثة التي بدت كأنها نائمة فقط ، فقبلت جبينها ، واجتثت خصلة من الشعر الطويل النامي بشكل عجيب على راس الميت وصنعت منها ســوارا . ومن ذلك اليوم توقف التخدير الليلي . غير أنها كلما أقدمت على عمل فيه خطورة ، كانت تشعر بضغط خفيف من السوار ينبهها الى ان تاخذ حذرها من الأمر . حسن ! اتظنون ان هـذا الميت ، ميت بالفعل، وان الجثة جثة ميت ؟ ... اما انا فلا اعتقد ذلك .

فسألته السيدة الشاحبة الوجه بنغمة غريبة أرسلت رعدة في أوصالنا في تلك الليلة المظلمة التي مرت بنا : الم تسمع بأن تلك الجثة خرجت من قبرها ؟ وان أحدا قد تعـــــــذب من رؤيتها وملامستها ؟

فقال الييت : لا ، لقد غادرت البلد .

وقال الطبيب : آه ، اخطات ياسيد الييت ، فالفت قصتك بهذه الدرجة من البساطة ... هذى هى السيدة « جريجوريسكا » ، على أتم استعداد لأن تجعل من تاجر « بال » بسويسرا مصاص دماء بولندى او هنغارى أو رومانى .

وسال الطبيب السيدة متضاحكا : ارأيت أثناء اقامتك فى جبال « كربات » بعض مصاصي الدماء ؟

فقالت السيدة الشاحبة بلهجة جدية غريبة : اسمعوا ، ما دام كل منكم قد روى قصة ، فانا ايضا أريد أن اروى لـكم قصة . ولن تقول يا دكتور انها قصة غير حقيقية لأنها قصتى . وسوف تعرفون لماذا انا شاحبة اللون هكذا ...

وفى هذه اللحظة تسلل شعاع من ضوء القمر خلال النـــــافذة والستائر وتلألأ على الأريكة حيث اضطجعت الســـيدة ، فغمرها بضوء ضـــارب الى الزرقة جعلها تبدو كتمثال من المرمر الاســـود ممدد على قبر . ولم يرتفع صـــوت واحد يرحب بهذا العرض ، ولـكن السكون العميق الذى ســـاد غرفة الاستقبال كان يفصح عن أن كلا منا ينتظر فى لهفة .

جبال الكربات



(١٢) جبال الكربات

أنا بولندية . ولدت في « ساندومير » ، وهي بلد ، الأساطير فيه معتقدات ، بلد نؤمن فيه بتقاليد أسرنا بقدر ما نؤمن بالانجيل او أشد . ولم يكن ثمة قصر من قصورنا ، أو كوخ من أكواخنا ، يخلو من شبح . وفي منزل الغني ، ومنزل الفقير ، في القصر وفي الكوخ ، يؤمن الناس بمبدأ الخير ومبدأ الشر . وفي بعض الأحيان يشتبك هذان المبدآن ، فيتصارعان ، وعندئذ ترتفع جلبة مبهمة في دهاليز القصر ، ويسمع زئير في الأبراج القديمة ، وتهتز الجدران بدرجة مخيفة ، فيفر النـــــاس من القصور والأكواخ ، ويهرع الفلاحون والأشراف الى الكنيسة ساعين الى الصليب المبارك أو المخلفات المقدسة ، وهي الأشياء الوحيدة التي تستطيع ان تحميهم من الشياطين التي ترعبهم .

على ان ثمة مبدأين آخرين اشد عنفا وقسوة : الطغيان والحرية .

وشـــهد عام ١٨٢٥ بين روسيا وبولندة معركة من المعارك التي اعتقد النـاس ان دماء شعب بأسره قد استنزفت فيهـــا كما تستنزف في كثير من الأحيـان دماء اسرة بأكملها . وحارب أبي واخواي ضـد القيصر الجديد ، وانتظموا تحت لواء الاســتقلال البولندي ، ذلك اللواء الذي كان يسقط حينا ويرتفع أحيـانا . وعلمت ذات يوم ان اخي الأصغر قد قتل ، وقيل لي في يوم آخر ان اخي الأكبر قد جرح جرحا مميتـا . وانقضى يوم آخر كنت استمع خلاله وانا فزعة الى دوى المدفع الذي جعل يقترب ولايكف عن القصف . وفي نهاية هـذا اليوم رايت أبي عائدا ومعه مائة فارس ، هم ما تبقى من ثلاثة آلاف مقاتل كانوا تحت قيادته ، اقبلوا لاجئين الى قصرنا ، وصمم ابي ان يدفن تحت الخرائب .

كان أبي يرتجف من اجلي ، وهو الذي لم يكن يخاف على نفسه من أي شيء . وكانت المسألة بالنسبة اليه موتا اكيدا . اذ كان واثقا بأنه لن يقع حيا في أيدي اعدائه . ولكن مشكلتي كانت مشكلة العبودية والعار اللذين كانا في انتظاري .

واصطفى أبي من بين المائة الباقين معه عشرة رجال ، فدعا رئيسهم وسلمه كل ما يملكه من ذهب وجواهر . ولما تذكر أن امي قد لجأت وهي طفلة الى دير « ساهاسترو » وسط جبال الكربات ابان التقسيم الثاني لبولندة ، امر رئيس الرجال أن يمضي بي الى ذلك الدير الذي كان خليقا أن يكرم وفادتي كما فعل مع امي من قبل .

وعلى الرغم من ان ابي كان يحبني حبا شديدا ، فان وداعه لي لم يستغرق وقتا طويلا ، فقد توقع ان يظهر الروس امام القصر في اليوم التالي ، فلم يكن امامنا وقت نضيعه . وارتديت بسرعة ثوبا للركوب اعتدت ان ارتديه كلما خرجت مع اخوتي للصيد . وتم تجهيز احسن جواد في الاسطبل ، ووضع أبي في جرابي طبنجاته الخاصة ، وهي من روائع مصنع « تولا » ، وقبلني ، واصدر امره بالرحيل .

وفي غضون الليل ثم في النهار التالي قطعنا عشرين فرسخا ، وكنا نتبع ضفاف احد تلك النهيرات التي لا اسم لها ، والتي تصب في نهر الفستولا . وابعدتنا هذه المرحلة الأولى السريعة عن مواقع الروس . ومع زوال الشمس الغاربة ، شاهدنا تلألؤ قمم جبال الكربات الثلجية . وفي ختام نهار اليوم التالي بلغنا قاعدة الجبال . واخيرا ، في صبيحة اليوم الثالث بدانا المسير في بعض شعابها .

وليس ثمة شبه بين جبالنا وجبال الكربات ، وبين جبالكم الغربية المهذبة . فالطبيعة عندنا تتجلى لعين الرائي في اتم عظمتها وروعتها ، وقمم الجبال العالية تختفي داخل السحب ، تكسوها الثلوج الدائمة ، وتنحدر غاباتها الهائلة نحو صفحة البحيرات المصقولة كالمرآة ، وهي بحيرات شاسعة كالبحار ، لم تتفضن صفحتها يوما بمرور قارب ، ولم تعكر شبكة صياد سطحها البللوري الأزرق ، زرقة السماء . ولا يسمع في تلك الأرجاء صوت انسان ، الا في النادر ، ومن حين الى حين ، عندما تنساب في الجو اغنية

« مولداфية » ، تجاوبها الحيوانات بصرخاتها الوحشـــية .. الحان وصيحات توقظ الطبيعة الموحشة ، وتشعرها بكيانها .

واجتزنا الوف الأميال تحت أقباء الغابات المظلمة التي تتخللها تلك العجائب التي لا يتوقعها احد والتي تتـكشف لنا في كل خطوة نخطوها في تلك العزلة الموحشة ، فتثير دهشتنا ثم اعجابنا . هناك يكمن الخطر في كل مكان ، الوف الأخطار المختلفة الانواع . ولكن الانسان لا وقت عنده للخوف ، فالاخطـار كلها رهيبة ، تتمثل حينا في سيـــول مفاجئة ناتجة من ذوبان الجليد ، تندفع جامحة من صخرة الى أخرى ، وتغزو على حين غرة المم الضيق الذي نجتـازه ، والذي شقته الحيوانات المتوحشة عند مرورها فرارا من الصيادين الذين يطاردونها ، وتتمثل احيـانا اخرى في أشجار أخنى عليهـا الدهر ، فاذا بها تنفصل من التربة وتسقط بدوى هائل كهدير الزلازل . وتتمثل أخيرا في زوابع تلفك في غمائم كثيفـة تلمع من ثناياها البرق وهو يسطع ويتطاول ويتلوى كحية ناوية .

وبعد هـذه القمم العالية الشبيهة بقمم الالب ، والغابات البدائية والجبال الشامخة ، والغابات الشاسـعة ، تجد براري لا آخر لها ، كأنها البحر اللجي بأمواجه وعواصفه ، وسافانا (سهول) قاحلة متموجة ، يمتد فيهـا البصر الى أفق مترامي الحدود . والانسان لا يشعر هنا بخوف ، بل بشجن عميق شامل لا سبيل الى تبديده ، لأن منظر الاقليـم المترامي الى مدى البصر ، ثابت لا يتغير . وانك لتصعد وتهبط مئات المرات ، منحدرات متماثلة ، وتبحث دون طائل عن طريق مرسوم . وحين تجد نفسك في هذه الحال ، تائها في عزلتك وسط الصحارى ، تعتقد أنك وحـدك في هـذه الطبيعة ، ويستحيل ضيقك كربا ، ويبدو لك السير بلا طائل لأنه لن ينتهي بك الى شيء ، فلن تصادف قرية أو قصرا أو كوخا، أو أثرا لآدمي . على انك قد تجد وسط هذه الطبيعة الكئيبة بحيرة خالية من البوص أو العشب كائنة عند طرف نهير ، وكأنها البحر الميت ، تعترض طريقك بمياهها الخضراء ، وعلى سطحها تحلق بعض الطيور المائية ، وترتفع في الجو عند دنوك منها ، وهي تطلق صرخات طويلة متنافرة . ثم انك تدور بعد ذلك دورة ترتقي بعدها تلا قائما امامك ، ثم تهبط الى واد آخر ، ثم ترتقي تلا ثانيا ،

وهكذا دواليك حتى تنتهي من السلسلة الجبليــــة التى تتناقص بالتدريج .

ولـكنك متى اجتزت هـذه السلسلة وتقدمت صوب الجنوب ، عاد المنظر الطبيعى الى جلاله ، وحينئذ تلمح سلســلة اخرى من جبال أكثر ارتفاعا وابدع منظرا واروع مظهرا ، تحف بها الغابات وتتخللها جداول المياه . وهكذا تتولد الحياة بعودة الظلال والمياه ، فيــسمع الانسـان اجراس دير ، ويرى قافلة تسير متعرجة على سفوح الجبال . واخيرا ، ومع اشعة الشمس الغاربة ، يستطيع المرء ان يميز منازل بعض القرى ، كأنها زمرة من طيور بيضاء متساندة . منازل تبدو كأنها قـد تجمعت لتحمي نفســها من بعض الغزوات الليلية ، فالخطر يظهر مع عودة الحياة . كان الخطر فى الجبــال الاولى التى اجتزناها يتمثل فى جماعات الدببة والذئاب ، ولـكنه الآن يتجلى فى عصب اللصوص قطاع الطرق المولدافيين الذين لامفر من الاشتباك معهم فى قتال .

وجعلنا نتقدم . وقد مرت بنا عشرة ايام ولم يقع لنا حادث . ولمحنا قمة جبل « بيون » التى تفوق بارتفاعها كل هذه السلسلة من الجبال المـاردة ، والتى يقع على ســــــفحها الجنوبى دير « ساهاسترو » الذى كنا نقصده . وبقى ان نسير ثلاثة ايام حتى نصل اليه . وكنا فى أواخر شهر يولية ، والجو حار نهارا . وفى الساعة الرابعة بدأنا نستنشق بتلذذ لا مثيل له أولى نســـــمات الليل المنعشة وكنا قد تجاوزنا أبراج « نيـتســـــو » المتهدمة . وانحدرنا نحو سهل كنا قد لمحناه خلال ثغرات الجبال. واستطعنا من مكاننا أن نلمح مجرى نهر « بسترتزا » بضفافه التى تزينها النباتات الحمراء والأزهار البيضاء . وسرنا بحذاء أخدود تسيل فى أعماقه ميـاه النهر ، ولم تجد دوابنا الا حيزا ضيــقا من الارض يكفى بالـكاد لسير دابتين متجاورتين . وتقدمنا الدليل ، راقدا على جواده يغنى اغنيــة « مورلية » رتيبة النغم ، ورحت اتتبع كلماتها باهتمام كبير .

وكان المغنى هو الشـاعر ، أما اللحن فلم يكن أحد خلاف هؤلاء الجبليين يستطيع ان يؤديه بكل ما فيه من وحشة مشجية وبساطة كئيبة . وها هى كلمات الأغنية :

في مستنقع ستافيلا .
حيث سالت دماء المحاربين ،
هل ترى تلك الجثة ؟
انها ليست لأحد أبناء ايلليرى (١) :
انها للص شرس ،
خدع مارى الرقيقة ،
فقتل وخدع وأحرق



رصـــاصـــة في قلب اللص ،
مرقت كالسهم ،
واستقرت في حنجرته ،
ولـكن ، يا للسر العميق ، فمنـــذ ثلاثة أيام ،
وتحت شجرة الصنوبر الـكئيبة المنعزلة ،
تروى الثرى دماؤه الدافئة ،
وتسود أرض « أوفيجان » الباهتة .



وتلك عيونه الزرقاء على الدوام ،
فلنهرب منه جميعا ،
يا لسوء حظ كل من يمر بالمستنقع بالقرب منه ،
انه مصاص للدماء ، وحتى الذئب المتوحش ،
يهرب بعيدا عن جثته النجسة ،
وعلى الجبل الأجرد ،
هرب النسر المشئوم .



وعلى حين غرة ، سمعت طلقة نارية ، ومرقت رصاصة تصفر ، فانقطع الغناء ، اذ أصيب الدليل برصاصة أردته ، وانقلب يتدحرج الى قاع الهوة ، بينما توقف حصانه وهو يرتجف ، وقـــد مال برأسه الذكى نحو قاع الهوة حيث اختفى سيده . وفى الوقت نفسه ارتفع صوت قوى ، وأبصرنا على جوانب الجبل ثلاثين لصا منتصبين ،

(١) ايلليرى منطقة جبلية ، عـــلى الشاطىء الشرقى للبحـــر الادرياتيكى — المترجم

فأصبحنا مطوقين ، وامسك كل منا سلاحه . وعلى الرغم من انا اخذنا على غرة فان رفاقي وهم من قدامى الجنود الذين اعتادوا النيران ، لم يتطرق الخوف الى قلوبهم . وردوا على العدوان . اما أنا فقد امسكت بمسدسي لأكون قدوة لرفاقي . ولما شعرت بحرج موقفنا صحت فيهم : الى الأمام ! ووخزت جوادي فانطلق في اتجاه السهل . ولكننا كنا نواجه رجالا جبليين اشداء ، يقفزون من صخرة الى اخرى كالشياطين ، ويطلقون النيران وهم يقفزون محتفظين على الدوام بمركزهم الذي اتخذوه من البداية بالنسبة الينا . ثم انهم كانوا من جهة اخرى يتوقعون حركتنا . ففي موضع يتسع فيه الطريق ، ويستوي الجبل سهلا ، كان شاب في انتظارنا على رأس اثني عشر رجلا يمتطون الجياد . ولما لمحونا أرخوا الأعنة لجيادهم ، وأقبلوا علينا يصدمون جبهتنا ، بينما راح مطاردونا الآخرون يتدحرجون على جوانب الجبل . فقطعوا علينا خط الرجعة وحاصرونا من جميع الجهات .

واصبح الموقف خطيرا . على انني وقد اعتدت مشاهد الحرب منذ طفولتي ، استطعت ان اواجه الموقف دون ان يغيب عني شيء من دقائقه . كان اولئك الرجال يلبسون جلود الخراف ، وعلى رءوسهم قبعات كبيرة مستديرة مزينة بالأزهار الطبيعية ، كقبعات المنغاريين ، وفي يد كل منهم بندقية تركية يطلقها ويهزها وهو يطلق صرخات وحشية ، وفي نطاقه سيف مقوس وزوج من المسدسات . أما زعيمهم فهو شاب لايزيد عمره عن الثانية والعشرين ، شاحب اللون ، له عينان سوداوان عريضتان وشعر بضفائر تتدلى على كتفيه . وتتكون بزته من رداء مولداڤي مزين بالفرو ومشدود عند الخصر بعصبة من جدائل ذهبية وحريرية . وفي يده يلمع سيف مقوس ، وفي نطاقه اربعة مسدسات براقة . وكان خلال المعركة يطلق صيحات خشنة متنافرة ليست من طبيعة البشر ، ولكنها تفصح مع ذلك عن ارادته ، اذ كان رجاله يستجيبون لها فيستلقون على بطونهم ليتجنبوا رصاص جنودنا ، ثم ينهضون ويطلقون النار بدورهم فيصرعون الواقفين منا ، او يجهزون على المجروحين ، ويقلبون المعركة الى مجزرة .

وشهدت ثلثي المدافعين عني يتساقطون الواحد بعد الآخر ، حتى بقي منهم اربعة التفوا حولي ، لا يطلبون الرحمة ، وهم على يقين

من أنهم لن يتالوها ، ولا يفكرون الا فى شيء واحد : أن يبيعوا حياتهم بأغلى ثمن مستطاع .

وحينئذ أطلق الزعيم صيحة اقوى من سائر الصيحات ، واشار بطرف سيفه ناحيتنا ، يقصد بالتأكيد تطويقنا بدائرة من النيران واطلاق كل الرصاص على مجموعتنا ، فقد انخفضت البنادق المولدافية كلها بحركة واحدة . وادركت ان ساعتنا الاخيرة قد حانت ، فرفعت عيني ويدى الى السماء فى صلاة أخيرة ، وتلبثت فى انتظار الموت .

وفى هذه اللحظة ابصرت شابا يهبط المنحدر متدافعا ، واثبا من صخرة الى صخرة ، ثم يتوقف على حجر يشرف على المشهد كله ، وكأنه تمثال قائم على قاعدة ، ومد يده الى الساحة ونطق بكلمة واحدة : « كفى ! » . وعند سماع هذا الصوت ارتفعت كل الأعين ، وبدا على الجميع الامتثال لأمر هذا السيد الجديد . على أن لصا واحدا فقط أسند بندقيته الى كتفه وأطلقها، فصرخ أحد رجالنا وقد هشمت الرصاصة ذراعه اليسرى ، واستدار للفور ليهجم على الشخص الذى أصابه ، ولكن قبل أن يخطو جواده اربع خطوات ، سطع بريق فوق رءوسنا وسقط اللص العاصي ، وقد حطمت رصاصة رأسه .

وانهكت كل هذه الأحداث المؤثرة قواي فرحت فى غيبوبة . ولما استعدت حواسي ، كنت راقدة على العشب ورأسي معتمد على ركبتي رجل لم أر منه الا يده البيضاء المغطاة بالخواتم ، وهى تطوق خصرى ، فى حين وقف أمامى الزعيم المولدافى الشاب الذى قاد الهجوم ضدنا ، وقد عقد ذراعيه فوق صدره . وحمل سيفه تحت ابطه . وقال ذلك الذى كنت مستندة اليه بالفرنسيه بلهجة آمرة :

ــ كوستاكى ، انصرف حالا ، واسحب رجالك واترك لى أمر العناية بهذه الفتاة .

فرد عليه الرجل المقصود بهذا الأمر والذى بدا أنه يتمالك نفسه بمشقة : اخى ، أخي ، حذار أن تستنفد صبرى ، انني اترك لك القصر فاترك لى الغابة . انت سيد القصر ، ولكني هنا صاحب السيادة والنفوذ ، بكلمة واحدة الزمك الطاعة .

ــ كوستاكي ، انا الأخ الأكبر . فاعلم لذلك انني السيد في كل مكان ، في الغابة وفي القصر ، هنا وهناك ، اوه ! انني مثلك تجري في عروقي دماء « برانكوفان » ، دماء ملكية اعتادت اصدار الأوامر ، ولذا فاني آمر فأطاع .

ــ جريجوريسكا ، لك أن تحكم خدمك ، لا جنودي .

ــ جنودك لصوص ياكوستاكي ، سوف اشنقهم في ابراج قصرنا اذا لم يطيعوني للحال .

ــ حسن ! جرب اذن أن تسيطر عليهم .

وشعرت حينئذ ان ذلك الذي كان يسندني قد سحب ركبته ووضع راسي برفق على حجر ، فارسلت نظري اليه في فضول ، فوجدته نفس الشاب الذي هبط الينا من السماء وسط المعمعة، والذي ما كدت ألمحه وما كاد يتكلم حتى اغمى على .

كان شابا في نحو الرابعة والعشرين ، طويل القامة ، له عينان واسعتان زرقاوان ، تنطقان بعزم وارادة لا نظير لهما . وكان شعره الطويل الاشقر الذي يميز الجنس السلافي يغطي كتفيه ، كأنه الملاك ميكائيل ، ويطوق خدين ناضرين . وكانت شفتاه مرتفعتين في ابتسامة ساخرة تلمح من بينهما صفين من اللؤلؤ . اما نظرته فتحاكي نظرة النسر في سنا البرق . وكان يرتدي قميصا من القطيفة السوداء ، وعلى رأسه قلنسوة صغيرة ، كقلنسوة « رافائيل » مزينة بريش النسر ، وسروالا ضيقا يكاد يلتصق بجلده ، وزوجا من الأحذية المطرزة ، ويحيط بخصره حزام مثبت به خنجر صيد، ويحمل في جراب معلق بكتفه بندقية صغيرة ذات طلقين ، وهي البندقية التي خبر احد اللصوص دقة تصويبها .

ومد يده ، كأنها تأمر اخاه ، ونطق ببضع كلمات باللغة المولدافية ، وظهر لهذه الكلمات وقع عميق في نفس اللصوص . وعندئذ تكلم الزعيم الاصفر ، بنفس اللغة ، وحزرت ان كلماته تتخللها تهديدات ولعنات . ولم يرد الاخ الاكبر على كل هذه الخطبة الطويلة الحارة الا بكلمة واحدة ، انصاع لها اللصوص .

وتكلم كوستاكي ثانية بالفرنسية فقال : فليكن ياجريجوريسكا ، هذه المرأة لن تذهب الى الكهف ، ولكنها مع ذلك تخصني :

وانا ارإها جميلة ، وقد استوليت عليها ، واريدها لنفسي . قال هـذا وهجم علي ، ورفعني بين ذراعيه . فأجاب ذلك الذي شملني بعنايته : سنأخذ هـذه المرأة الى القصر ، ونسلمها الى أمي ، ولن اتركها حتى تصل الى هناك .

فصاح كوستاكي بالمولداقية : الى بحصاني .

واسرع عشرة من اللصوص ينفذون الأمر ، فاحضروا لسيدهم الحصان الذي طلبـه . والتفت جريجوريسكا حوله وقبض على زمام جواد لا صـاحب له فقفز على ظهره دون ان يلمس ركاب السرج . وقفز كوستاكي على ظهر الجواد بخفة لا تقل عن خفة اخيه ، مع إنه كان يحملني بين ذراعيه . وانطلق بالجواد . وكأن جواد جريجوريسكا قـد تلقى نفس النخزة التي تلقاها جواد كوستاكي ، فانطلق هو أيضا حتى تحاذى الجوادان والتصقت الراس بالراس ، والجنب بالجنب .

وكان من العجب العجاب أن يشاهد المرء هذين الفارسين وهما ينطلقان جنبا الى جنب صامتين عابسين لا تفوت أى منهما حركة تصدر من الآخر ، رغم انه لا يبـدو على اى منهما أنه ينظر الى الآخر . وترك الاثنان الأعنة للجوادين اللذين انطلقا بهما خـلال الغابات بين الصخور والوهاد .

واستطعت أن ارى براسي الذى كان فى وضـع مقلوب ، عينى جريجوريسكا الجميلتين ترنوان الى . ولمح كوستاكى ذلك فرفع رأسى ، ولم اعد ارى غير نظرته القـائمة التى كانت تلتهمنى ، فنكست جفوني . على ان ذلك لم ينفعنى شيئا ، فقد ظللت أرى تلك النظرة النافذة التى كانت تخترق صدرى وتنفذ الى اعمـاق قلبى . وحينئذ تملكنى جنون غريب ، فقد خيل الى انني «لينور» بطلة قصـيدة « بيرجر » يحملنى فارس على جواد ، والفـارس والجواد كلاهما من الأشباح . ولمـا شعرت اننا قد توقفنا عن السير فتحت عيني وانا مرتعبة ، فقد توهمت انني لن ارى حولى الا صلبانا مكسورة ومقابر فاغرة . على ان ما رأيتـه لم يكن أبهج مما توقعت : فقد وجدت نفسي فى الفنـاء الداخلى لقصر مولداقى مبنى فى القرن الرابع عشر .

قصر برانكوفان



(١٣) قصر برالكوفان

عندئذ تركني كوستاكي انزلق من بين ذراعيه الى الأرض ، وفي نفس اللحظة تقريبا نزل بجواري . وكان ، مع حركته السريعة ، يتابع حركة جريجوريسكا الذى كان ، على حد قوله ، السيد المطاع في قصره . وهرع الخدم حين راوا الشابين ومعهما المراة الغريبة التي احضراها . ومع أن عناية الخدم كانت موزعة بالتساوي بين كوستاكي وجريجوريسكا ، الا انه كان من الواضح أن القسط الأكبر من التبجيل كان من نصيب الثاني .

واقتربت امراتان ، فاصدر اليهما جريجوريسكا امرا بالمولدافية ، واشار الى بان اتبعهما . وتضمنت تلك الاشارة قدرا كبيرا من الاحترام ، فلم اتردد في الامتثال لأمره . وبعد خمس دقائق كنت في غرفة قد تبدو للإنسان العادي عارية مهجورة . ولكنها كانت في الواقع اجمل غرفة في القصر : فهى مربعة الشكل بها اريكة مكسوة بقماش صوفي خشن اخضر اللون ، تستعمل مقعدا بالنهار، وفراشا بالليل ، وخمسة او ستة مقاعد ذات مساند من خشب الأرو ، وصندوق كبير ، وفي أحد أركانها منضدة على شكل مظلة كأنها اريكة كبيرة فاخرة من ارائك الكنائس . ولم يكن على النوافذ أو السرير ستائر على الاطلاق . ويصل الانسان الى هذه الغرفة صاعدا على سلم ، بحوائطه تجاويف تقف بداخلها ثلاثة تماثيل ، أكبر من الحجم الطبيعي ، لأفراد أسرة برانكوفان. وبعد لحظة ادخلت الخادمتان الامتعة بالغرفة ، ومعها حقائبي؛ وعرضتا على خدماتهما . وشرعت أصلح ما افسدته الحوادث الاخيرة من زينتي ، ومع ذلك احتفظت بحلة الركوب التي كانت تتواءم مع ثياب مضيفاتي اكثر من اى زى آخر استطيع تجهيزه .

وماكدت افرغ من هـذه التغييرات البسيطة حتى سمعت قرعا خفيفا على باب غرفتي فقلت : « ادخـل » ، بالفرنسية طبعا ، فالفرنسية كما هو معلوم هي لغة أمهاتنا نحن البولنديات .

ودخل جريجوريسكا ، وقال : آه ياسيدتي ، انني سعيد لأنك تتكلمين الفرنسية .

ـ وانا ايضا ياسيدى سعيـدة لانى أتـكلم بهذه اللغة ، وقد اتاحت لى هـذه الصـدفة ان أقدر تصرفك الـكريم معى ، وبهذه اللغة دافعت عني ضد نوايا أخيك . وبهذه اللغة أعبر لك عن خالص شكرى وامتناني .

ـ شكرا ياسيدتي ، كان من الطبيعى ان أهتم بشأن امرأة فى مثل الموقف الذى كنت فيه ، فقـد كنت اصيـد فى الجبال حين سمعت طلقـات متواترة غير منتظمة ، فادركت ان فى الأمر عدوانا مسلحا ، واتجهت الى مصدر النيران ، كما يقولون بلغة الحروب ، فوصلت فى الوقت المنـاسب بحمد الله . ولـكن اسمحى لى ياسـيدتي ان استوضحك امرا ... ما هى الظروف التى حملت سيدة راقية مثلك على أن تغامر بنفسها فى جبالنا ؟

ـ أنا ياسيدى بولندية ، قتل أخواى منـذ قليـل فى الحرب ضـد روسيـا ، ولابد ان ابى قد لحق بهما ، فقد تركته يستعد للدفاع عن قصرنا ضـد العدو . اما انا فقد هربت من هـذه المذابح كلها ، كما أمرنى أبى ، وجئت التمس المـأوى فى دير « ساهاسترو » الذى لجأت اليه أمى فى طفولتهـا ، وفى ظروف تشبه ظروفى الحاضرة ، فوجدت فيه الملجأ الأمين .

فقال الشاب : انت اذن عدوة الروس ، عظيم ! فسوف تكون صفتك هذه سـندا قويا لك فى قصرنا هـذا ، ونحن فى حاجة الى كل قوانا حتى نعد العدة للمعركة القادمة . والآن وقد علمت من تكونين ، فاعلمى ياسيدتي من نكون .

ان اسم « برانكوفان » ليس غريبـا عنك بالمرة ، أليس كذلك ياسيدتي ؟

فحنيت رأسى مؤيدة .

ـ وأمى آخر اميرة تحمل هـذا الاسم ، وهى آخر سلالة ذلك

الزعيم المشهور الذى قتله رجال « الـكانتيمير » الأشقياء . بطانة بطرس الاول. وتزوجت امى فى اول الامر أبى «اسيربان وبفادى» وهو أمير مثلها ، ولـكنه من سلالة اقل شهرة من سلالتها . وكان ابى قد تربى فى فيينا حيث استطاع ان يتذوق مزايا المدنية ، واعتزم ان يجعلني اوربيا ، فرحلنا الى فرنسا وايطاليا واسبانيا والمانيا.

انني أعلم انه ليس من واجب الابن أن يقص عليك كل الذى سوف اقصه الآن ، ولـكن يجب ان تعرفينا حق المعرفة ، وهذا لصالحنا جميعا ، وسوف تقدرين البواعث التي تدفعني الى هذا الإفضاء .

ففي أثناء رحلات أبي الاولى . عندما كنت أنا طفلا رضيعا ، كانت امي على علاقة اثيمة باحـــــــد زعماء « الشيعة » ــ وأردف جريجوريسكا باسما : وتطلق هــذه التسمية فى بلادنا على اولئك الرجال الذين هاجموك . اقول كانت امي على علاقة اثيمة بالكونت

« جورداكي كوبرولي » وهو نصف يوناني ونصف مولدافي ، فكتبت الى أبي تعترف له بكل شيء ، وتطلب منه الطلاق متعللة لذلك بانها وهي من اسرة برانكوفان لا تستطيع أن تظل زوجة لرجل أصبح بالتدريج اجنبيا عن وطنها . ولـكن وا اسفاه ، فلم يكن ثمة داع

لأن يوافق ابى على هــذا الطلب الذى قد يبدو لك غريبا . ولكنه عندنا طبيعي وشائع للغاية ، اذ مات ابى من تضخم الشرايين الذى كان يشكو منه منذ أمد طويل . واستلمت أنا رسالتها بدلا منه ، واكتفيت بان اعبر لها عن اخلص تمنياتي بحياة سعيدة ، وابلغتها فى نفس الرسالة بانها قد ترملت . وطلبت منها الاذن فى ان اواصل رحلاتي ، فأذنت لى بذلك .

وكان هدفى المبـــاشر ان أستقر فى فرنسا او المـانيا حتى لا أواجه رجلا يكرهني ولا استطيع أن أحبــه ، واعني به زوج أمي . على انني علمت فجأة ان الـكونت جورداكي كوبرولى قد قتـــل ، قتله على ماعلمت رجال ابى من قدامى القوزاق وبادرت بالعودة ، فقد

كنت احب أمي ، واستشعرت وحدتها وحاجتها فى هــذا الظرف الى ان تجد بجوارها الاشخاص الذين يمكن أن يكونوا عونا لها . ومع انها لم تـكن تشعر نحوى بأى حب أو عطف ، فانني كنت ابها .. وعدت ذات صبـــاح على غير انتظار الى قصر اجدادى ،

فوجدت شابا حسبته في أول الامر اجنبيا عنا ، ولكني علمت بعد ذلك انه اخي ، كوستاكي ، ابن الزنا الذي أصبح ابنا شرعيا بعد زواج امي الثاني . كوستاكي . ذلك المخلوق الذي رايته ، والذي يصعب ترويضه ، قانونه الوحيد اهواؤه وشهواته ، ولا يقدس شيئا في الدنيا غير امه ، ولا يطيعني الا كما يطيع النمر اليد التي روضته ، ولكنه يزار زئيرا متواصلا ، يغذيه أمل غامض في أن يلتهمني يوما من الأيام. وهو ما زال يخضع لسلطتي داخل القصر وفي مسكن أسرة برانكوفان وايفادي ، ولكن خارج هذا الحصن ، في قلب الريف ، ينقلب ابن الغابة والجبال المتوحش الذي يريد أن يطوي كل شيء تحت ارادته الحديدية . واني لأعجب ، كيف أذعن اليوم كما اذعن رجاله ! لا ادري ، قد يكون ذلك اثرا متخلفا من عادة قديمة ، أو بقية من توقير قديم .

ولكني لا اريد أن أفاجأ بتجربة جديدة . ابقي هنا ولا تبرحي هذه الغرفة ، وهذا الفناء وكل ما بداخل هذه الأسوار، وانا المسئول عن كل شيء . اما اذا خطوت خطوة واحدة خارج القصر فلن اكون مسئولا عن أي شيء . اللهم الا اذا واجهت القتل دفاعا عنك .

ــ ألا استطيع اذن أن انفذ ارادة أبي فاواصل طريقي الى دير ساهاسترو ؟

ــ افعلي ما تشائين ، حاولي ذلك ، اؤمري ، وانا ارافقك ، ولكني سوف اواصل طريقي .. اما انت .. اما انت فلن تبلغي غايتك .

ــ ما العمل اذن ؟

ــ ابقي هنا ، وانتظري، واعتبري بما يحدث ، وتحيني الفرص، افترضي انك سقطت في وكر من أوكار اللصوص وان شجاعتك وحدها هي الخليقة بأن تخلصك من ورطتك ، ورباطة جاشك وحدها هي التي تنقذك . ان امي طيبة وكريمة على الرغم من ايثارها ابنها كوستاكي ثمرة عشقها . وهي فوق ذلك من أسرة برانكوفان ، اي انها اميرة حقيقية ، وسترين انها سوف تحميك من أهواء كوستاكي الشريرة . ضعي نفسك تحت حمايتها . انت

جميلة وسوف تحبك ، ومن جهة اخرى ... (ونظر الى نظرة لايمكن التعبير عنها) من يستطيع ان ينظر اليك ولا يحبك ! تعالى الان الى غرفة الطعام حيث تنتظرنا امى ، ولا تظهرى لها أى ارتباك أو ارتياب ، وتكلمى باللغة البولندية ، فلا يوجد هنا من يعرف هذه اللغة ، وسوف اترجم أحاديثك الى أمى ، واطمئنى فلن اترجم منها الا ما يصح قوله ، ولا تقولى بنوع خاص اية كلمة عما كشفته لك الآن من اسرار حتى لايظن احد أننا متواطئان ، فانت تجهلين أساليب المكر والخداع عند أشدنا اخلاصا ، تعالى .

وتبعته فى ذلك السلم المضاء بمشاعل الراتنج المثبتة فى اذرع حديدية بارزة من الحوائط وكان من الواضح أن هذه الاضاءة غير العادية قد عملت من اجلى . ووصلنا الى غرفة الطعام وما أن فتح جريجوريسكا الباب ونطق بكلمة مولدافية عرفت من وقتها أنها تعنى « الاجنبية » حتى اقبلت علينا امراة طويلة القوام ، هى الأميرة برانكوفان ، وكان شعرها الابيض معقودا حول راسها الذى تعلوه طاقية صغيرة من فرو السمور تعلوها قنبرة ، اشارة الى أصلها النبيل ، وترتدى قميصا من الجوخ المذهب مرصعا عند صدره بالجواهر ، فوق جلباب طويل من قماش تركى محلى بفرو شبيه بفرو الطاقية . وبيدها مسبحة لها حبات من الكهرمان جعلت تديرها بسرعة كبيرة بين اصابعها . والى جانبها كوستاكى مرتديا حلة عظيمة فاخرة بدا لى فيها فى غاية الغرابة ، وهى حلة ماجيارية من القطيفة الخضراء ذات أكمام طويلة ، تنحدر تحت الركبة وسراويل من الكشمير الاحمر وخفين من جلد الماعز المرصع بالذهب وكان عارى الرأس ، تنحدر شعوره الطويلة السوداء المائلة للزرقة على رقبته العارية ، تلامسها فقط شبكة خفيفة بيضاء مثبتة فى قميص حريرى .

وحيانى بارتباك ونطق ببضعة الفاظ مولدافية لم افهمها ، فقال جريجوريسكا :

ــ تستطيع يا اخى أن تتكلم الفرنسية ، فالسيدة بولندية وتفهم هذه اللغة .

وعندئذ تفوه كوستاكى ببعض الكلمات الفرنسية ، ثم اوجهها

كما لم افهم ما قاله بالمولدافيــــــــة . ولــكن الام قاطعتهما ومدت اليهما ذراعها بوقار . وتبين لى انها قالت لولديها ان مهمة الحفاوة بى من شـــانها وحدها . وعندئذ طفقت تلقى بالمولداقية عبارات الترحيب

واضفت اســـــــارير وجهها على عباراتها معنى يسهل فهمه ، فأشارت الى المنضدة . وقدمت لى مقعدا قريبا منها ، واشـــارت الى المنزل كله بما يفهم انه تحت تصرفى . وجلست هى قبل الجميع فى عظمة يخالطها شىء من العطف ، فرسمت علامة الصــليب ، وشرعت فى صلاة . وعندئذ جلس كل منا فى مكانه حسب قواعد السلوك ، وبجوارى جريجوريسكا ، ولمــا كنت انا الاجنبية ، فقد جعلت لكوستاكى مكان الصدارة الى جوار والدته « سميراند » ، وهــذا هو اسم الاميرة . وكان جريجوريسكا قد بدل هو ايضا ثيابه ، ولبس حلة ماجيارية كحلة أخيه ، والاثنتان من القطيفــة العنابية اللون ، وسروالا من الــكشمير الازرق ، ويتدلى من عنقه وسام بديع : نيشان السلطان محمود . وجلس ســـائر المؤاكلين يتناولون طعام العشاء على نفس المــائدة ، واتخذ كل منهم المكان المناسب لمركزه بين الأصدقاء أو بين الخدم والحشم . وكان جو العشاء مقبضا . ولم يوجه كوستاكي الحديث الى مرة واحدة ، بينما اهتم اخوه بالتحدث معى بالفرنسية . اما الأم فانها كانت تقدم الى كل شيء بنفسها بذلك الأسلوب الرسمى الذى تلتزم به. لقد صدق جريجوريسكا حين قال انها اميرة حقا . وبعد انتهاء العشاء تقدم جريجوريسكا من أمه ، وشرح لها بالمولدافية حاجتى الى العزلة للاستجمام مما عانيته من الانفعالات فى هــذا اليوم ، فأشـــارت ســـــميراند برأسها بالموافقة ومدت الى يدها ، وقبلت جبينى كأنها تقبل ابنتها ، وتمنت لى ليلة سعيدة فى قصرها . ولم يخطىء جريجوريسكا ؛ فقد كنت فى حاجة شـــديدة الى الانفراد بنفسى بعض الوقت ، ولذا شكرت الأميرة التى سارت معى حتى البــاب حيث كان فى انتظارى المرأتان اللتان رافقتانى من قبل حتى غرفتى . وحييت الأميرة بدورى : كما حييت ولديهــا ، ودخلت نفس الغرفة التى خرجت منها منــذ ســاعة . ولم يتغير بهــذه

الغرفة شيء : سوى ان الاريكة قد انقلبت سريرا . وشكرت المرأتين وأشرت اليهما بما معناه انني سوف اخلع ملابسي وحدي ، فخرجتا في الحال بمظاهر الاحترام التي تدل على انهما مأمورتان باطاعتي في كل شيء . وبقيت في الغرفة الفسيحة التي لم تستطع شمعتان ان تضيئاها كلها ، فلم يكن يضاء منها سوى الأجزاء التي امر بها وانا حاملة الشمعة . وتلاعبت الانوار بصورة غريبة ، فكان هناك ما يشبه النزال بين ضوء شمعتي وبين اشعة القمر التي انسابت الي الغرفة من نافذتي الخالية من الستائر. وكان بالغرفة خلاف الباب الذى دخلت منه ، والذى يفتح على السلم ، بابان آخران لكل منهما مصراع هائل يفتح الى داخل غرفتي فيبعث في نفسي شعورا بالطمأنينة . واتجهت الى باب الدخول وفحصته ، فوجدت به من وسائل الدفاع ، ما بالبابين الآخرين . وفتحت نافذتي : كانت تطل على هاوية ، وادركت ان جريجوريسكا قد اختار لي هذه الغرفة بعد تفكير عميق . وعندما عدت اخيرا الى اريكتي ، وجدت على منضدة موضوعة بالقرب من راس سريري بطاقة صغيرة مطوية فتحتها وقرات فيها بالبولندية : « نامي هادئة ، ليس هناك ما تخشينه ما دمت في داخل القصر »

جريجوريسكا

واتبعت هذه النصيحة . ولما تغلب التعب على مشاغلي الذهنية رقدت ونمت .

الأخـــوان



(١٤) الاخوان

من تلك اللحظة ، استقر بى المقام فى القصر ، وبدأت المأساة التي سأقصها عليكم الآن . اصبح الأخوان مغرمين بى ، كل حسب طبيعته . ففى اليوم التالى ، قال لىكوستاكي انه يحبنى ، وانني سأكون له وحده دون غيره ، وانه يفضل ان يقتلني على أن يتركني الى اى كائن من كان . اما جريجوريسكا فانه لم يقل شيئا ، ولكنه راح يغمرني برعايته واهتمامه ، مستخدما كل ما تلقاه من تعليم وتربية ممتازة وكل ما يذكره من شباب امضاه في أرقي بلاطات اوروبا لكى يرضيني . غير ان الأمر لم يكن شاقا الى هذا الحد . اذ كنت أشعر بنغمات صوته تداعب روحي ، ونظراته تنفذ الى سويداء قلبى .

وبعد ثلاثة اشهر كانكوستاكي قد قال لىمائة مرة انه يحبنى ، وكنت اكرهه .. وفى هذه الفترة لم يكن جريجوريسكا قد قال لى كلمة حب واحدة . ولكنى كنت اشعر بأننى سوف أكون ملكيديه اذا طلب مني ذلك .

وكف كوستاكي عن جولاته فى الخارج ، ولم يعد يغادر القصر ، وترك القيادة مؤقتا لجندى برتبة ملازم كان يعود من حين الى آخر ليتلقى منه الأوامر ثم يختفى . وكانت سميرالد هى أيضا تحبني حبا شديدا ، تخيفني دلائله . وكان واضحا أنها تحمي كوستاكي ، ويبدو أنها تغار على أكثر مما تغار على ابنها . ولما كانت لا تفهم البولندية او الفرنسية ، وانا لا افهم المولدافية ، فانها لم تستطع أن تكلمني كثيرا لصالح ابنها . ولكنها تعلمت أن تقول لى بالفرنسية ثلاث كلمات ، ترددها كلما مست شفتاها جبهتى ، وهذه الكلمات هى « كوستاكي يحب هدفيج » .

وذات يوم بلغني نبأ مفجع ضاعف ما انا فيه من كرب : فقد أطلق سراح رجالي الاربعة الذين بعوا على فيد الحياة في المعركة، وعادوا الى بولندة بعد ان اقسموا بشرفهم أن يعود احدهم قبل انقضاء شهور ثلاثة لينهي الى اخبار ابي . فذات صباح وصل واحد منهم واخبرني ان قصرنا قد حرق ودمر ، وان ابي قتل وهو يدافع عن القصر . ومنذ تلك اللحظة اصبحت وحيدة في هذا العالم .

وازداد الحاح كوستاكي ، وازدادت رقة سميراند وسماحتها . ولكنني تذرعت هذه المرة بالحداد على ابي . والح كوستاكي قائلا انه كلما اشتدت وحدتي زادت حاجتي الى من يشد أزري . والحت على الأم معه . ومثله ، وربما أكثر منه .

وحدثني جريجوريسكا عن قوة ارادة المولدافيين وتحكمهم في نفوسهم اذا ارادوا اخفاء شعورهم عن الناس . وكان هو مثلا حيا لهذه القوة . وليس في مقدور امرأة أن تتأكد من حب رجل لها كما تأكدت أنا من حبه لي ؛ على انني لم اكن لأستطيع ان ابرهن على وجود هذا الحب ، فلم يبصر احد في القصر يده تمس يدي او عينيه تبحثان عن عيني . ولم يكن هناك ما يكشف لكوستاكي عن هذه المنافسة سوى الغيرة ، ولم يكن ثمة ما يكشف لي عن هذا الحب سوى حبي . ولكنني أعترف مع ذلك ان سيطرة جريجوريسكا على نفسه كانت تقلقني . كنت أومن بسيطرته هذه ، انما كان يعوزني الدليل المقنع . وذات مساء دخلت غرفتي فسمعت قرعا خفيفا على احد البابين اللذين ذكرت انهما مقفلان من الداخل، وحزرت من طريقة القرع ان الطارق صديق ، فاقتربت وسألت : من الطارق ؟

فأجاب بصوت تدل نبراته على الصدق الذي لا مراء فيه : جريجوريسكا .

فسألته وانا ارتجف : ماذا تريد ؟

فقال : اذا كنت تثقين بي ، وتؤمنين باني رجل شريف ، أجيبيني الى طلبي .

— ما طلبك ؟

ـ اطفئي النور كانك راقدة . وبعد نصف ساعة افتحي لي بابك

وكان جوابي الوحيد : بعد نصف ساعة .

واطفأت النور وانتظرت . وكان قلبي يدق بشدة اذ ادركت ان في الأمر حدثا خطيرا . وانقضي نصف الساعة . وسمعت قرعا ارق من الاول ، وكنت قد رفعت المزاليج ، ولم يعد امامي سوى ان افتح الباب . ودخل جريجوريسكا ، ولم انتظر منه امرا فقد اغلقت الباب وراءه واغلقت المزاليج . وظل لحظة صامتا ، لايتحرك، واشار الى بالسكوت . ولما تأكد انه ليس هناك اى خطر، سار بى الى منتصف الغرفة الواسعة ، ولما أدرك من ارتجافي انني لا استطيع ان ابقى واقفة . أحضر لى كرسيا ، فجلست ، أو بالأحرى تهاويت على الكرسي . وقلت له :

ـ اوه ! يا الهي ! ما هناك ، ولم كل هذه الاحتياطات ؟

ـ ذلك لان حياتي وحياتك ـ حياتي التي قد لا تساوى شيئا من غير حياتك ـ تتوقفان على الحديث الذى سيجرى بيننا الآن. وامسكت بيده وانا خائفة ، فرفع يدى الى شفتيه وهو ينظر الي كمن يطلب الصفح عن جراته هذه ، وارخيت عيني دليل الموافقة.

قال لي بصوته الموسيقي الشبيه بالغناء : انا احبك : هل تحبينني ؟

فاجبته : نعم .

ـ اتوافقين على ان تكوني زوجتي .

ـ نعم .

ومرر يده على جبهته متنهدا تنهد السعادة .

ـ اذن فانت لا ترفضين أن تتبعيني ؟

ـ ساتبعك الى اي مكان .

ـ ذلك لأننا ـ كما تعلمين ـ لا نستطيع أن نكون سعيدين الا اذا هربنا .

فصحت قائلة : اوه ! نعم ، فلنهرب .

فاجاب وهو يرتجف : صمتا .

ـ الحق معك .

واقتربت منه وانا ارتجف ، فقال لي : اليك ما فعلته ، اليك

السبب الذى جعلنى ابقي طول هـــذا الوقت دون أن ابوح لك بحبى.. ذلك لانى أردت أن استوثق أولا من حبك . فلا يمكن ان يقف بعد ذلك شيء فى ســبيل زواجنا . أننى غني ياهدفيج غنى فاحشا ، على طريقة اشراف مولدافيا : غنى بالأراضى وقطعـان المــاشية ورقيق الارض . حسن ! لقد بعت فى ديرهانجو مايساوى مليونا من الأراضى والمواشي والقرى ، واستلمت فى مقابلها أحجارا كريمة تساوى ثلاثمائة الف فرنك ، وذهب بثلاثمائة الف فرنك ، والباقى كمبيالات على فيينا . هل يكفيك المليون ؟

فضغطت على يده قائلة : يكفيني حبك ياجريجوريسكا ، والأمر لك

— حسن ! استمعى الى . ساذهب غدا الى دير هانجو لأجرى الترتيبات الأخيرة مع رئيس الدير . انه يحتفظ لى بجياد مطهمة تنتظرنا ابتــداء من الســاعة التاسعة مختبئة على بعد مائة خطوة من القصر . وبعد العشاء اصعدى الى غرفتك كما فعلت اليوم ، واطفئى النور ، وســادخل غرفتك كما فعلت اليوم ، ولــكنى لن اخرج وحدى ، بل معك ، فنصل الى الباب الذى يفتح على الخلاء ونجد جيــادنا فنثب على ظهورها . وفى النهـــار ، بعد غد ، نــكون قد قطعنا ثلاثين فرسخا .

— متى يأتى بعد الغد !

— عزيزتى هدفيج ...

وضمنى جريجوريسكا الى صدره والتقت شفاهنا . أوه ! ما أصدق حديثه ، لقد فتحت باب غرفتى لرجل نبيل النفس، صادق الوعد ، فهم اننى له بروحى أن لم اكن بجســدى .

ومضى الليل دون أن أستطيع النوم لحظة واحدة . تصــورت نفسى هاربة مع جريجوريسكا ، وشعرت به وهو يحملنى كما حملنى كوستاكى . ولــكن فى هــذه المرة تحولت المسيرة المخيفة الى عناق رقيق ساحر ، اضفت عليه السرعة لذة حسية ، لأن للسرعة ايضا لذة .

واقبل النهـــار . ونزلت . وخيل الى ان كوستاكى حيانى بكآبة أشد من المعتاد . ولم تعد ابتسامته ساخرة بل اصبحت متهددة ، اما سميراند ، فقد بدت كعادتها ، لم تتغير . وفى أثناء تنــاول

الطعام . امر جريجوريسكا بتجهيز جياده . ولم يبد على كوستاكي اي اهتمام بهذا الأمر . وفى حوالى الحادية عشرة حيانا جريجوريسكا وابلغنا انه لن يعود فى المساء . ورجا امه الا تنتظره وقت الغداء . ثم استدار نحوى ورجانى ان اقبل اعتذاره .

وخرج . وتبعته عين اخيه حتى اللحظة التى غادر فيها الغرفة . وفى هـذه اللحظة لمع فى عينيـه بريق قوى من الكراهية بعث الرعدة فى اوصالى . وانقضى النهار فى الوان من الرعب لكم ان تتصوروها . ولم اكن قد افضيت بمشروعاتنا الى اى مخلوق ، حتى فى صلواتى لم اجرؤ ان احدث بها ربى . ومع ذلك توهمت ان هـذه المشروعات يعرفها الجميع ، وان كل نظرة تقع على تنفذ الى اعماق قلبى ، وتقرأ افكارى

وكان الغداء بالنسبة لى عذابا ، فقد كان كوستاكي متجهما صامتا فلم يتكلم الا فى النادر ، واكتفى هذه المرة بان يوجه الكلام الى امه بالمولدافية مرتين او ثلاثا ، وفى كل مرة كانت نبرات صوته تبعث الرعدة فى اوصالى . ولما نهضت لاصعد الى غرفتى قبلتنى سميراند كالمعتاد وقالت لى تلك العبارة التى لم اسمعها تخرج من فيها منذ ثلاثة ايام : « كوستاكى يحب هدفيج » .

لقد قال لى جريجوريسكا ان حب كوستاكى انما هو الموت نفسه

وفى حوالى السابعة حيث شرع النهار يولى الادبار رايت كوستاكى يعبر الفناء ، ثم يستدير ، لينظر ناحيتى ، فتراجعت الى الوراء حتى لايرانى ، وكنت قلقة ، اذ ابصرته من مكانى بالنافذة يتجه صوب الاسطبلات ، فغامرت ورفعت مزاليج باب غرفتى ، وانسللت الى الغرفة المجاورة حيث امكننى ان اراقب ما سوف يفعله .

رايتـــه بالفعل يسير نحو الاسطبلات ، ثم يخرج منها جواده المفضل ، فأسرجه بعناية الرجل الذى يهتم بادق التفاصيل . وكان يرتدى نفس الحلة التى ظهر لى بها لأول مرة ، ولـكنه لم يحمل فى هـذه المرة سوى سيفه . ولما اتم تجهيز الجواد القى نظرة اخرى الى نافذتى ، ولما لم يرنى وثب الى ظهر الجواد وفتح نفس الباب الذى خرج منه اخوه ، والذى سيدخل منه عند عودته وابتعد الجواد راكضا فى اتجاه دير هانجو .

عندئذ انقبض قلبي بشكل مزعج ، وانتابني شعور مسبق مشئوم بأن كوستاكي قد مضى ليواجه أخاه . وبقيت عند النافذة حيث أستطيع ان أميز الطريق الذى ينحرف بزاوية على بعد ربع فرسخ من القصر ثم يختفي عند مشارف غابة . ولكن الظلام اخذ يشتد كثافة لحظة بعد اخرى ، وامسى الطريق فى النهاية وقد تلاشت معالمه .

وبقيت مكانى . واخيرا اشتد قلقى لدرجة تجمعت معها قواى . ولما كانت القاعة السفلى على ما يبدو هى المكان الذى اتوقع أن اتلقى عنده الأخبار الاولى عن كلا الأخوين ، فقد نزلت اليها . ووقعت انظارى اول ما وقعت على سميراند . ولحظت من هدوء وجهها انها لا تدرك شيئا عن الموضوع . وقد امرت باعداد طعام العشاء كالمعتاد ، وكانت ادوات طعام الاخوين فى مكانهما .

ولم اجرؤ على الاستفسار من أى انسان . ومن عساى اسأل على أية حال ؟ فلم يكن فى القصر من يتكلم أيا من اللغتين اللتين اتكلم بهما وكنت ارتجف لأقل صوت اسمعه .

كان من المعتاد ان نجلس الى المائدة فى الساعة التاسعة لتناول طعام العشاء . وقد نزلت فى الساعة الثامنة والنصف ، واخذت اتبع بناظرى عقرب الدقائق الذى يبدو بوضوح وهو يدور على وجه ساعة الحائط . وعبر العقرب الدوار المسافة التى تفصله عن ربع الساعة . ودقت الساعة دقة الربع ، برنين اجوف يثير الشجن . وواصل العقرب دورانه الصامت ، ورأيته يجتاز ثانية المسافات ببطء وانتظام .

وقبل التاسعة ببضع دقائق خيل الى انني اسمع صوت حوافر جواد فى الفناء . وسمعت سميراند الصوت ؛ لأنها ادارت رأسها ناحية النافذة ، ولكنها لم تستطع أن ترى شيئا لشدة الظلام .

اوه ! انها لو نظرت الى فى هذه اللحظة ، لاستطاعت ان تخمن ما كان يصطرع فى نفسى من الانفعالات . ولم نسمع سوى دبيب اقدام جواد واحد . وكانت المسألة عندى بسيطة ، اذ كنت على يقين من أنه لن يعود الا فارس واحد ، ولكن أى الفارسين ؟

وارتفع دبيب خطوات في الردهة المجاورة . خطوات بطيئة ، ولكنها ثقيلة على قلبي .

وانفتح الباب . ورأيت ظلا ينتصب وسط الظلام . وتوقف الظل لحظة عند الباب . وتوقفت دقات قلبي . وتقدم الظل واقبل حتى دخل في دائرة النور .. فتنفست الصعداء .. لأني عرفته ، جريجوريسكا . لو طال عذابي لحظة أخرى لانفجر قلبي . انه جريجوريسكا . شاحب الوجه كالموتى . وكان من السهل التخمين بنظرة واحدة ، ان شيئا رهيبا قد حدث .

سألته سميراند : أهذا أنت يا كوستاكي ؟

فأجاب جريجوريسكا بصوت أجوف : كلا يا أماه ..

ـ آه ! هـذا أنت . ومنذ متى تضطر امك الى انتظارك ؟

فقال جريجوريسكا وهو يلقى بنظرة الى عقرب الساعة : الساعة لم تتجاوز التاسعة يا أماه .

وبالفعل دقت الساعة في نفس اللحظة التاسعة .

فقالت سميراند : هذا صحيح . أين اخوك ؟

وعلى الرغم مني ، خطر لي ان هـذا هو نفس السؤال الذي وجهه الرب الى قابيل . ولم يجب جريجوريسكا .

وسألت سميراند : الم ير احدكم كوستاكي ؟

فاجاب رئيس الخدم ، ذهب الكونت في حوالي الساعة السابعة الى الاسطبلات واسرج جواده بنفسه ، ورحل في اتجاه هانجو .

وفي هذه اللحظة تلاقت عيناى بعيني جريجوريسكا . ولم ادر ما اذا كان ما رأيته حقيقة أم وهما ، فقد خيل الى انى ارى نقطة دم وسط جبهته .

ورفعت اصبعي الى جبهتي ، مشيرة الى الموضع الذى ظننت ان هذه البقعة موجودة فيه . وفهم جريجوريسكا ، فتناول منديلا ومسحها .

وتمتمت سميراند : نعم ، نعم ، ربما قابل دبا أو ذئبا فتسلى بمطاردته ، ومن اجل هـــــــــذا تنتظر الأم ابنها . أين تركته ياجريجوريسكا ؟ تكلم .

فأجاب جريجوريسكا بصوت منفعل ولكنه ثابت : يا أمي ، لم نرحل معا ، أنا وأخي .

ـ حسن ! لنقدم الطعام ونجلس الى المائدة ، ونغلق الأبواب ، وليقض من بالخارج ليلته بالخارج .

ونفذ الشطران الأولان من الأمر تنفيذا تاما ، فجلست سميراند في مكانها ، وجلس جريجوريسكا الى يمينها ، وجلست أنا الى يسارها . وخرج الخدم لتنفيذ الأمر الثالث ، أي لغلق أبواب القصر .

وفي هذه اللحظة سمعنا لغطا شديدا في الفناء ، ودخل أحد الخدم الى القاعة في هلع وقال : أيتها الأميرة ، لقد عاد جواد الكونت كوستاكي الى الفناء وحده وهو مغطى بالدماء .

فنهضت سميراند ممتقعة الوجه وتمتمت في غضب : أوه ! هكذا عاد جواد أبيه ذات مساء .

وأرسلت نظري الى جريجوريسكا : لم يعد لونه شاحبا ، بل أمسى داكنا ـ والواقع كان جواد الكونت كوبرولي قد عاد ذات مساء الى فناء القصر مغطى بالدماء ، وبعد ساعة وجد الخدم جثته ، مثخنة بالجراح ، فأحضروها الى القصر ـ وتناولت سميراند مشعلا من يد أحد الخدم ، وتقدمت نحو الباب وفتحته ونزلت الى الفناء ، وكان ثلاثة أو أربعة من الخدم قد قبضوا على عنان الجواد المذعور وبذلوا جهدهم في تهدئته . وتقدمت سميراند من الحيوان ونظرت الى الدم الذي يلطخ السرج ، ولمحت جرحا فوق جبهته فقالت : قتل كوستاكي من الامام في مبارزة ، قتله عدو واحد . ابحثوا يا أولاد عن جثته ، وسنبحث فيما بعد عن القاتل .

ولما كان الجواد قد دخل من باب هانجو ، فقد اندفع الخدم كلهم من هذا الباب . ورأينا مشاعلهم تتفرق في الخلاء وتخترق الغابة ، وتتلألأ كما تتلألأ الحشرات البراقة في أمسية الصيف الجميلة في سهول نيس وبيرز .

وبدا على وجه سميراند الثقة بأن البحث لن يطول ، اذ بقيت واقفة عند الباب تنتظر . ولم تسقط دمعة واحدة من عين تلك

الأم الثكلى . ومع ذلك شعرت بأنين اليــأس الذى استولى على اعماقها .

ووقف جريجوريسكا خلفها ، ووقفت انا بالقرب من جريجوريسكا ، وكان يريد أن يقدم لى ذراعه عند مغادرته القاعة ، ولـكنه لم يجرؤ على ذلك . وبعد قرابة ربع الساعة ، ابصرنا مشعلا يظهر عند منحنى الطريق ، ثم مشعلين ، ثم المشاعل كلها ، ولم تكن هــذه المرة مبعثرة فى الخلاء ، بل كانت متجمعــة حــول مركز واحد . وامكن بعد هنيهة تمييز هــذا المركز ، اذ كان محفــة عليها رجل ممدد . وتقدم الموكب الجنائزى على مهل ، ولـكنه كان يتقدم على أى حال . وبعد ست دقائق أمسى امام الباب . وتقدم بالغريزة أولئك الذين يحملون المحفــة حين أبصروا الأم الحية فى انتظار ابنها الميت ، وبرزوا من بين الآخرين ، ودخلوا الفنــاء فى هدوء . وتبعتهم سميراند ، ونحن فى أعقابها ، ووصلنا على هذا النحو الى القاعة الـكبرى حيث وضعت الجثة . وباشارة ملؤها العظمة والجلال أبعدت سميراند كل الحاضرين واقتربت من الجثة وركعت بجانبها على ركبتيها ، وازاحت الشعر الذى يغطى كالحجاب وجه الميت ، وتأملته بعينين جافتين برهـــــة طويلة ، ثم فتحت رداءه المولداڤى وأزاحت القميص المبلل بالدم .

كان الجرح على الجانب الايمن من صدره ، ولا بد أن يكون قد نتج من طعنة نصل مستقيم ذى حدين قاطعــين . وتذكرت اننى رأيت فى اليوم نفســه الى جانب جريجوريسكا خنجر الصيد الطويل الذى يثبت على البندقية . وبحثت بنظرى عن هـــذا الســلاح الى جانبه ، ولـكنه لم يكن موجودا .

وطلبت سميراند ماء ، بللت منديلها به وغسلت الجرح ، فانبثق الدم حارا صافيا يصبغ شفرتي الجرح باللون الاحمر . وكان فى المنظر الذى اراه أمامى قسوة وجلال فى وقت واحد : فهــــذه الغرفة الفسيحة المضاءة بمشاعل الراتنج ، والوجوه الهمجيـــة والاعين التى تبرق بالوحشية ، والثياب الغريبة ، والأم التى كانت على مرأى الدم الذى ما زال يتدفق دافئا تحسب الوقت الذى انقضى منذ أن سلب الموت ابنها ، وهـــذا السكون المطبق الذى

لا يعكره الا زفرات هؤلاء اللصوص الذين كان كوستاكي زعيمهم. كل ذلك كان ، كما ذكرت ، قاسيا وجليلا في وقت واحد .

واخيرا أدنت سميراند شفتيها من جبين ابنها ، ثم اعتـــــدلت وازاحت الى الخلف ضفائر شعرها الطويل الابيض التي تهدلت .

وقالت : جريجوريسكا !

وارتعد جريجوريسكا ، وهز راسه ، وانتزع نفسه مما اصابه من تخاذل ، واجاب :

ـ أمي ؟

ـ تعال هنا يا ولدي واصغ الي .

واطاع جريجوريسكا مرتجفا . وكلما اقترب من الجثة أخذ الدم المتدفق من جرحه يزداد غزارة وحمرة . ولحسن الحظ لم تكن سميراند تنظر من تلك الناحية ، لأنها لو فعلت ذلك لـكان مشهد الدم ، هو دليل اتهام كاف يغنيها عن البحث عن القاتل.

قالت : جريجوريسكا ، أعلم تماما أنك وكوستاكي لم تكونا مطلقا متحابين ، فأنت من سلالة « وايفادى » عن أبيك ، وهو « كوبرولي » عن أبيه ، ولـكنكما ، من سلالة برانكوفان من أمكما ، واعلم ايضا أنك من اهل مدن الغرب ، وهو من أبناء جبال الشرق ، ولـكنكما مع ذلك اخوان من البطن الذى حملكما حسن ! أريد أن أعرف ياجريجوريسكا اذا كنا سنحمل رفات ابني الى جوار أبيه قبل أن تؤدى القسم ، وما اذا كان بوسعي أن أبكي في هدوء ، بكاء امرأة تعتمد عليك ، على رجل يقتص لأخيه!

ـ اذكري لي يا أمي اسم قاتل أخي ، واصدرى امرك ، وأنا أقسم لك أنه سوف يموت قبل مضي ساعة ، اذا طلبت مني ذلك.

ـ اقسم ياجريجوريسكا ، أقسم ، والا نزلت بك لعنتي ، أتسمع هـذا يا ابني ؟ اقسم ان القاتلَ سوف يموت ، وانكَ لن تترك في بيته حجرا فوق حجر، وان امه وأولاده واخوته وزوجته أو خطيبته سوف يبيدون على يديك ، اقسم واستنزل عليك لعنة السماء اذا قصرت في تنفيذ هذا القسم المقدس ، فان توانيت ، فعليك أن تستسلم الى البؤس والشقاء ، ونقمة الاصدقاء ، ولعنة أمك .

وبسط جريجوريسكا يده فوق الجثة وقال : اقسم أن القاتل سوف يموت .

وامام هذا القسم العجيب الذى كنت أنا ، وربما الميت أيضا الوحيدين اللذين يدركان مضمونه الحقيقي ، رايت . أو توهمت انني اري معجزة رهيبة ، رايت عيني الميت تنفتحان وتستقران على ، وهما أشد حيوية من اى وقت رايتهما فيه ، وشعرت كأن الشعاع الصادر منهما ينبض وينفذ الى قلبى كأنه قطعة ملتهبة من حديد . وكان هذا فوق ما احتمل فأغمى على .

ديرهانجو



(١٥) دير هانجو

ولما استيقظت ، كنت في غرفتي ، مستلقية على سريري ، واحدى النساء ساهره بجواري . وسألتها عن سميراند ، فأجابت بانها ساهرة بالقرب من جثة ابنها . وسألت عن جريجوريسكا فأجابت بانه في دير هانجو .

ولم تعد هناك ضرورة للفرار . الم يمت كوستاكي ؟ ولم يعد ثمة مجال للزواج ، فهل في مقدوري ان اتزوج قاتل أخيه ؟ وهكذا انصرمت ثلاث ليال وثلاثة أيام ، وأنا في أحلام عجيبة . كنت أرى دواما ، في اليقظة والمنام ، هاتين العينين الساطعتين ، وسط ذلك الوجه الميت . وياله من منظر مخيف !

وكان اليوم الثالث هو الموعد المحدد لدفن كوستاكي . وفي صباح ذلك اليوم أحضر لي بعضهم ، من قبل سميراند ، حلة كاملة لارملة فارتديتها ونزلت .

وبدا المنزل خاويا ، اذ كان الجميع بالكنيسة ومضيت الى مكان الاجتماع ، وبينما انا أجتاز المدخل ، رأيت سميراند التى لم ارها منذ ثلاثة أيام ، تجتاز المدخل هي أيضا وتقبل نحوي . وبدت كتمثال بجسم الألم ، وبحركة بطيئة كحركة التمثال ، وضعت شفتيها الباردتين على جبيني ، وبصوت كأنه خارج من قبر نطقت بالعبارة المألوفة :

« كوستاكي يحبك » .

وليس في الامكان ان تتصوروا مقدار الاثر الذى احدثته في نفسي هذه الكلمات . فهذا التصريح بالحب ، بالزمن الحاضر بدلا من الماضي ، هذه العبارة « يحبك » بدلا من « كان يحبك » ، هذا الحب الصادر من خلف القبور ، والذى جاء يبحث عني

فى دنيا الحياة ، اثار فى نفسي شعورا رهيبا .

وفى الوقت نفسه تملكني شعور غريب بأننى فى الواقع زوجة ذلك الذى مات ، لا خطيبة ذلك الذى لم يزل على قيد الحياة . كان لحده يجذبنى ، على الرغم منى ، ويؤلمنى ، مثلما تجذب الحية ، كما يقول البعض ، الطائر الذى تسحره .

وبحثت عيناى عن جريجوريسكا ، ولمحته مستندا الى عمود وهو ممتقع الوجه ، وعيناه تحدقان فى السماء : ولم استطع ان اتأكد مما اذا كان يرانى . وكان رهبان دير هانجو ملتفين بالجثة ، يرتلون الصلوات حسب طقوسهم اليونانية ، بنغمات متوافقة احيانا ، ونغمة رتيبة فى أغلب الأحيان . وأردت ان اصلى معهم . ولكن الصلاة تلاشت على شفتى ، فقد كانت نفسي مضطربة حتى لقد توهمت انني أشهد طائفة من الشياطين ، لا جمعا من القساوسة .

وعندما رفعوا الجثة ، أردت أن أتبعها ، ولكن قواى خانتنى . وشعرت بأن ساقى تموثان تحتى ، فاستندت الى الباب . وعندئذ أقبلت سميراند نحوى واشارت الى جريجوريسكا ، فلبى الاشارة واقترب . وحدثتني سميراند بالمولدافية ، فقال لي جريجوريسكا: تأمرنى امى ان اترجم لك كلمة كلمة كل ما سوف تقوله .

وواصلت سميراند الحديث . ولما انتهت قال جريجوريسكا : اليك حديث أمى : أنت تبكين ابنى باهدفيج ، كنت تحبينه . اليس كذلك ؟ اننى أشكر لك دموعك ، واشكر لك حبك . وسوف تكونين من الآن ابنتي كما لو كان كوستاكى زوجك . ان لك منذ اليوم وطنا وأما وأسرة . ولنذرف كل الدموع التى يجب ان يبذلها الانسان لموتاه ، ثم نصبح بعد ذلك ، جديرتين بذلك الذى لم يعد بيننا حيا ... أنا أمه ، وانت زوجته ! الى اللقاء ! عودى الى مسكنك ، اما انا فاشيع ابنى الى مقره الاخير ، وعند عودتي ساحبس نفسي مع آلامي ، ولن تريني الا بعد ان اكون قد تغلبت عليها . اطمئنى ، فسأقضى على تلك الآلام ، لانى لا اريد أن تقضى هى علي .

ولم استطع ان ارد على أقوال سميراند هذه التى ترجمها جريجوريسكا بأكثر من آهة . وصعدت الى غرفتى ، وابتعد

الموكب . ورأيتـــــه يختفى فى زاوية الطريق . ولم يكن الخط المستقيم الذى يوصل بين دير هانجو وبين القصر يزيد طوله على نصف فرسخ . ولكن عوائق الارض الزمت الطريق الانحنـــاء والتعرج . فاستبع القصر على بعد حوالى الساعتين . وكنا فى شهر نوفمبر ، وقد غدا النهـار باردا وقصيرا ، والليـــــل يغشى فى الساعة الخامسة .

وفى حوالى الساعة السابعة ظهـرت الشموع ثانية دلالة على عودة الموكب الجنائزى . لقد رقدت الجثة فى قبر آبائها ، وتم تنفيذ كل ما قيل .

ذكرت لـكم ذلك الوســواس الغريب الذى لازمنى منذ الحادث المشئوم الذى البسنا جميعا السواد ، وبخاصة منـــذ ان رايته عينى الميت المغلقتين تتفتحان وتحملقان فى وجهى . وفى ذلك المساء اشتـد حزنى تحت وطأة انفعالات اليوم ، واخـذت انصت الى ساعة القصر الـكبيرة تدق الساعات المتتابعة ، وازداد احســاسى بالحزن كلما مر الوقت واقتربت اللحظة التى لقى فيها كوستاكى حتفه .

وسمعت الساعة تدق التاسعة الا ربعا ، وعندئذ استـبد بى شعور غريب ، وتملـكنى رعب جعلنى ارتجف من اعلى راسى الى اخمص قدمى ، ومع الرعب شىء كالنعاس الثقيل الذى لايقاوم ، ساق له صــدرى ، وتغشت منه عيناى، فمددت ذراعى وتقهقرت حتى ارتميت على فراشى . ومع ذلك لم تتعطل حواسى بالـكلية للدرجة التى لا اسمع معها وقع خطوات تقترب من بابى . وخيل الى أن بابى ينفتح ، ثم لم أر ولم اسمع شيئا ، ولم اشعر الا بألم حاد فى عنقى رحت بعده فى سبات عميق .

واستيقظت فى منتصف الليل وما زال مصباحى مشتعلا، واردت أن انهض ، ولـكنى كنت ضعيفة للغاية حتى لقد حاولت النهوض مرتين ، الا اننى تغلبت على هــذا الضعف . واذ كنت مستيقظة فقد أحسست فى رقبتى بنفس الألم الذى احسسـت به اثنـاء نعاسى . وجررت نفسى متكئة على الحائط حتى وصلت الى المرآة ونظرت الى صورتى فيها ، ولاحظت شيئا كوخز الابرة على شريان

العنق . وحسبت ان حشرة لدغتني اثناء نومي ، ولما كنت في اشد حالات التعب فقد رقدت ونمت .

وفي اليوم التالي اسيقظت كالمعتاد ، واردت ان انهض كعادتي عندما تتفتح عيناي ، ولكني شعرت بضعف لم اشعر به الا مرة واحده في حياتي ، وكان ذلك في اليوم التالي ليوم استنزف فيه بعض دمي .

واقتربت من مرآتي ، وهالني شحوبي .

ومر النهار كئيبا قاتما ، وانتابني شعور غريب : شعرت بالحاجة الى ان استريح أينما ذهبت ، فقد كنت اتعب من أية حركة . واقبل الليل ، واحضرت الخادمتان المصباح ، وفهمت من اشارتهما انهما يعرضان البقاء بالقرب مني ، ولكني شكرتهما ، فخرجتا .

وفي نفس الساعة ، حدث ما حدث بالامس ، وشعرت بنفس الاعراض ، فاردت ان انهض واستغيث ، ولكني لم أستطع الوصول الى الباب ، وسمعت بغير وضوح ساعة القصر تدق التاسعة الا الربع ، ودبيب اقدام ، وانفتح الباب ، ولكنني لم ار ولم اسمع شيئا. وكما حدث بالامس ، تهاويت على سريري ، وشعرت بألم حاد في نفس الموضع . وكما حدث بالأمس أيضا استيقظت في منتصف الليل ، أكثر ضعفا واشد شحوبا مني بالامس .

وفي اليوم التالي ، تجدد الوسواس الرهيب . وكنت قد عقدت العزم على النزول الى جوار سميراند ، على ما كنت اعانيه من ضعف ؛ حين دخلت احدي الخادمتين الى غرفتي ونطقت باسم جريجوريسكا . واقبل جريجوريسكا خلفها . واردت أن انهض لاستقباله ، ولكني سقطت ثانية في مقعدي . وصاح عندما رآني ، وهم بالاندفاع نحوي ، ولكني استجمعت قواي ، ومددت ذراعي نحوه وسألته : ماذا جئت تفعل هنا ؟

فقال : وا حسرتاه ! جئت اودعك ! جئت لأقول لك انني سوف اغادر هذا العالم الذي اصبحت لا أطيقه من غير حبك ووجودك ، جئت اقول لك انني سوف اعتكف في دير هانجو .

فقلت له : لقد حرمت وجودى ياجريجوريسكا ، ولـكنك لم تحرم حبى . وا اسفاه ! مازلت أحبك أبدا ، واتالم لان حبى لك أصبح منذ اليوم اثما .

ــ اذن ، هل آمل ياهدفيج أن تصلى من اجلى ؟

فأجبت مبتسمة : نعم ، ولـكنى لن أصلى طويلا .

ــ ماذا بك حقا ؟ ولمـاذا انت شاحبة الى هذه الدرجة ؟

ــ ما بى .. ليرحمنى الله ويدعونى الى جواره .

واقترب منى جريجوريسكا ، وتناول يدى فلم اقو على سحبها من يده ، وقال وهو ينظر الى بثبات : هـــذا الشحوب ليس طبيعيا ياهدفيج ، فما سببه ؟

ــ اذا قلت لك السبب ياجريجوريسكا ، فستظن أن بى مسا من الجنون .

ــ لا ، لا ، قولى ياهدفيج ، اتوسل اليك ، اننا فى بلد يختلف عن اى بلد آخر ، واسرة لا مثيل لها . قولى ، قولى كل شىء ، اتوسل اليك .

فحكيت له كل شىء : هذا الوسواس الغريب الذى ينتابنى فى الساعة التى مات فيها كوستاكى ، وذلك الرعب والخمول والبرود الثلجى والوهن الذى يلزمنى الفراش ، ودبيب الأقدام الذى اعتقد انى سمعته ، والباب الذى توهمت اننى رايته ينفتح ، واخيرا ذلك الألم الحاد الذى يعقبه ضعف وشحوب يستفحلان يوما بعد يوم .

وظننت ان جريجوريسكا سوف يرى فى قصتى هذه تباشـير الجنون ، وقد اكملت حكايتها بشىء من الخجل ، ولـكننى لاحظت انه أصغى اليها بانتباه شديد . ولمـا توقفت عن الـكلام فـكر برهة ثم سألنى : وهكذا تنامين كل مساء فى الساعة التاسـعة الا الربع ؟

ــ نعم ، على الرغم من المحاولات التى ابذلها فى مغالبة النعاس .

ــ وتعتقدين اذن انك ترين الباب وهو ينفتح ؟

ــ نعم ، على الرغم من اننى اغلقه بالمزلاج .

ــ وتشعرين بألم حاد فى العنق ؟

ــ نعم ، مع ان عنقى لا يـكاد يحتفظ بأثر لجرح .

ـ أتسمحين لي ان اراه ؟
وحنيت راسي على كتفي ، ففحص الندبة وقال بعد لحظة :
ـ هدفيج ، اتثقين بى ؟
فاجبته : اتطلب منى ذلك ؟
ـ هل تثقين بما اقول ؟
ـ كما اثق بكلام القديسين .
ـ حسن ياهدفيج ! اقسم لك بشرف الك لن تعيشي ثمانية ايام اذا لم توافقي على أن تفعلى منذ اليوم ما ساقوله لك .
ـ واذا وافقت ؟
ـ ربما تنجين .
ـ ربما ؟
فسكت .
ـ مهما يحدث ياجريجوريسكا . فسوف افعل ما تامرني به .
ـ حسن ! انصتى ، ولا تخافى . في بلادكم ، كما في هنغاريا، وكما في بلادنا ، رومانيا ، تقاليد .
وارتجفت ، فقد تذكرت هذه التقاليد .
ـ آه ! اتعلمين ما سوف أقوله ؟
ـ نعم ، رايت في بولندة بعض الاشخاص الذين عانوا هذا المصير الرهيب .
ـ تقصدين مصاصي الدماء ؟
ـ نعم ، ففي طفولتي شهدت في مقابر قرية من ضياع أبى ، استخراج اربعين جثة لأشخاص ماتوا خلال خمسة عشر يوما دون أن يعلم أحد سببا لموتهم ، فظهر على سبع عشرة جثة منها علامات مص الدماء ؟ اى ان جثثهم تلك كانت سليمة ، قرمزية اللون ، كالاجساد الحية اما الجثث الاخرى فكانت ضحايا الاولى .
ـ وماذا فعلتم لتخليص البلاد من شرهم ؟
ـ رشقت سهام في قلوبهم ، ثم أحرقوا .
ـ نعم ، هذا هو الاجراء المعتاد اتخاذه ، ولكنه لايكفي عندنا . فلكي أخلصك من الشبح ، يجب أن أعرف أولا من هو، وسوف أعرفه بحق السماء ، وأقاتله وجها لوجه اذا اقتضاني الأمر، ومهما كانت شخصيته .

فصحت مرتعبة : آه ! ياجريجوريسكا !

ـ اقول « مهما كانت شخصيته » ، واكرر لك هذا القول . ولكى نبلغ بهذه المغامرة غايتها ، يجب أن توافقى على كل ما اطلبه منك .

ـ قل ..

ـ كونى مستعدة فى الساعة السابعة . انزلى الى الكنيسة ، انزلى اليها بمفردك . ويجب ياهدفيج أن تتغلبى على ضعفك ، يجب عليك ذلك . وهناك نتزوج ، ونتلقى بركة الزواج .. وافقى على ذلك ياحبيبتى ، فانه يجب ، لكى أدافع عنك ، أن املك حق حمايتك أمام الله وامام النـاس .. ثم نعود بعد ذلك الى هنا ، ونرى ما سوف يحدث .

فصحت : اوه ياجريجوريسكا ، اذا كان هو ... فسوف يقتلك.

ـ لا تخشى شيئا ياحبيبتى هدفيج ، ما عليك الا ان توافقى .

ـ انت تعلم اننى سوف أفعل كل ما تريد ياجريجوريسكا .

ـ اذن الى اللقاء هذا المساء .

ـ نعم ، افعل انت كل ما تريد ، وسأتبعك على قدر ما استطيع ، هيا .

وخرج . وبعد ربع ساعة ابصرت فارسا ينطلق فى طريق الدير . كان هو . ولم يكد يختفى عن ناظرى حتى ركعت على ركبتى واخذت اصلى صلاة لا يؤديها أحد فى بلادكم التى لا تعرف الايمان . وانتظرت الساعة السابعة . ووهبت أفكارى قربانا الى الله والقديسين ، ولم أنهض الا حين دقت الساعة السابعة .

كنت ضعيفة ، ضعف المحتضر ، وشاحبة ، شحوب الموتى . والقيت على راسى وشاحا كبيرا أسود ، ونزلت على الدرج ، مستندة الى الحوائط ، وتوجهت الى الكنيسة دون ان اقابل احدا.

وكان جريجوريسكا ينتظرنى مع الأب « بازيل » رئيس دير هانجو ، يحمل الى جانبه سيفا مقدسا من مخلفات احد الصليبيين الذين استولوا على القسطنطينية مع فيلهـا ردوين ، وبدوين الفلاندرى .

وقال لي جريجوريسكا وهو يضرب بيده على سيفه : هدفيج ، هـذا ما سوف يبدد بعون الله السحر الذى يتهدد حياتك . اقتربي اذن ولا ترددي ، فهذا رجل مقدس ، سمع اعترافي ، وسيتلقى قسمنا .

وابتدأت مراسيم الزواج ، واعتقد انه لم يكن هناك ما هو أبسط منها وأكثر جلالا . ولم يكن أحد يعاون الكاهن الذى وضع بيده اكاليل الزواج على رءوسنا . ودرنا دورة حول المحراب ، ونحن مرتدون ثياب الحداد ، وبيد كل منا شمعدان ولما قرأ القسيس الآيات المقدسة ، اردف قائلا : اذهبا الآن يا ولدى ، وليمنحكما الله قوة وشجاعة لتقاتلا عدو البشر . انكما مسلحان بالبراءة والعدالة الالهية ، وسوف تنتصران على الشيطان نفسه . اذهبا وليباركـكما الرب .

وقبلنا الكتاب المقدس وخرجنا من الكنيسة .

ولأول مرة اعتمدت على ذراع جريجوريسكا . وشعرت كأن الحياة قد دبت من جديد في عروقي ، بملامسة هـذه النفس النبيلة والساعد القوى . وتيقنت من النصر ، ما دام جريجوريسكا معي . وصعدنا الى غرفتي . ودقت الساعة الثامنة والنصف . وعندئذ قال لي جريجوريسكا :

ـ هدفيج ، ليس لدينا وقت نضيعه . اتريدين أن تنامي كالمعتاد فيجرى كل شيء خلال نومك ، أم تريدين أن تبقي مرتدية ملابسك فتشاهدى كل ما يحدث ؟

ـ انني لا اخشى شيئا ما دمت قريبة منك ، واريد أن اظل يقظة حتى أرى كل شيء .

واخرج جريجوريسكا من صدره قطعة من نبات « البقس » المقدس ، ما زالت مبللة بالماء المقدس ، واعطانيها ، وقال :

ـ خذى هذا الغصن وارقدى في فراشك ، وابتهلى الى العذراء ، وانتظرى دون خوف . ان الله معنا . واياك أن تسقطى هـذا الغصن ، فمعه تسيطرين على الجحيم . لا تناديني ولا تصيحى . صلى ، وغذى نفسك بالأمل ، وانتظرى .

ورقدت في سريري ، ووضعت يدي متقاطعتين فوق صدري، ومعهما الغصن المقدس .

اما جريجوريسكا فانه اختبأ خلف الاريكة التى حدثتكم عنها ، والتى تشغل ركنا في غرفتي .

ورحت احصى الدقائق . ولا شك ان جريجوريسكا كان يعدها هو الآخر . ودقت ثلاثة ارباع الساعة . وبينما كانت المطرقة ترن ، شعرت بنفس الخدر والفزع والبرودة الثلجية تغشاني ، ولكنني أدنيت الغصن المقدس من شفتي ، فتلاشى ذلك الشعور الأول .

وعندئذ سمعت بوضوح دبيب الأقدام البطيء المتزن الذى اخذ يتقدم في السلم ويقترب من بابى ، ثم اخذ الباب ينفتح ببطء وبلا ضوضاء ، كان قوة خارقة تدفعه ، وعندئذ ...

وانقطع الصوت ، وكأنه اختنق في حنجرة الراوية . ثم تابعت الحديث بعد عناء : وعندئذ لمحت كوستاكي ، شاحب الوجه ، كما كان وهو فوق المحفة ، وشعره الطويل الاسود المتهدل على كتفيه ملطخ بالدماء ، يرتدى سترته العادية ، ولكنها كانت مفتوحة عند صدره تكشف عن جرحه الدامى .

كان كل ما فيه ميتا : الجثة واللحم والثوب والمشية .. اما عيناه ، عيناه فقط ، العينان المخيفتان ، فكانتا تشعان بالحياة .
والعجب العجاب ، انني امام هذا المنظر ، شعرت بشجاعتي تزيد بدلا من أن يزداد رعبى. ولا بد ان الله قد ارسله لأتمكن من تقدير موقفي وأدافع عن نفسى ضد الجحيم . وتقدم الشبح خطوة من سريرى ، فنظرت بثبات في عينيه ، وواجهته بالغصن المقدس . وحاول الشبح أن يتقدم ، ولكن قوة أشد من قوته اوقفته في مكانه . فوقف وتمتم : أوه ! انها غير نائمة ، وتعرف كل شيء . وكان يتكلم بالمولدافية ، ومع ذلك خيل الى انني سمعت هذه العبارة بلغة افهمها .

كنا هكذا ، أنا والشبح ، يواجه أحدنا الآخر ، دون أن استطيع انتزاع عيني من عينيه . عند هذا رأيت جريجوريسكا ـ ولم تكن بي حاجة الى لفت راسي ناحيته حتى أراه ـ رأيته يخرج

من خلف الأريكة الخشبية ، كملاك الموت ، قابضا على سيفه ، فرسم علامة الصليب بيده اليسري ، وتقدم ببطء وسيفه ممدود نحو الشبح . ولما رآه اخوه ، استل هو الآخر سيفه ، واطلق ضحكة رهيبة . على ان الشبح ماكاد سيفه يلمس السيفالمقدس حتى سقط ذراعه بلا حراك بالقرب من جسده .

وصدرت من كوستاكي آهة مفعمة بالصراع واليأس، وقال لاخيه:

— ماذا تريد ؟

— باسم الله الحي ... استحلفك أن تجيبني ...

فقال الشبح وهو يصر على أسنانه : تـكلم .

— هل أنا الذى انتظرتك ؟

— لا ..

— هل انا الذى هاجمتك ؟

— لا ..

— هل أنا الذى ضربتك ؟

— لا ..

— لقد القيت بجسمك على سيفي . هـذا كل ما حدث . وعلى ذلك فلست امام الله وامام النـاس المجرم الذى قتـل اخاه . انك لم تتلق رسـالة الهية ، بل شيطانيـة ! وقـد خرجت من قبرك ، لا كطيف مقدس ، ولـكن كشبح ملعون ، فعد الى قبرك.

وصاح كوستاكي ، وهو يبذل جهدا شديدا لامساكي : نعم ، معها !

وصاح جريجوريسكا بدوره : بل عد وحدك، فهذه المرأة تخصني

ولمس الجرح الدامى بسن السلاح المقدس . فصرخ كوستاكى كأن سيفا من نار قد لمسه ، وخطا خطوة الى الوراء رافعا يده اليسرى الى صدره . وفى نفس الوقت تقدم جريجوريسكا خطوة الى الأمام بحركة تماثل حركة أخيه . وعندئذ بدأت مسيرة بطيئة رهيبة ، وقد ثبتت عينا جريجوريسكا على عينى الميت ، كما ثبت سيفه على صدره — مسيرة كمسيرة دن‌وجوان والأمير — وجعل الشبح يتقهقر تحت ضغط السيف المقدس وامام ارادة لا تقاوم ، ارادة المجاهد فى سبيل الله ، ذلك الذى كان يتعقبه خطوة خطوة

دون أن ينطق حرفا واحدا . وطفق الاثنان يلهثان وهما شاحبا الوجه ، الحي يدفع أمامه الميت ، ويرغمه على ترك القصر الذي كان فيما مضى سكنا له ، والعودة الى القبر الذي اصبح مثواه في الحاضر والمستقبل . واقسم لكم ان المنظر كان مخيفا للغاية.

ومع ذلك وجدت نفسي بتأثير قوة علوية خفية ، ودون ان ادرك ما افعل ، قد نهضت وتبعتهما . ونزلنا السلالم التي لم يكن يضيئها الا حدقتا كوستاكي الملتهبتان ، واجتزنا بهذه الصورة السرداب ثم الفناء . وعبرنا الباب بنفس الخطوة المنتظمة : الشبح يتقهقر وجريجوريسكا باسط ذراعه ، وانا اتبعهما . واستمر هذا السير الاستعراضي ساعة زمنية كاملة ، فقد كان من الضروري اعادة الميت الى قبره . غير انه بدلا من السير في الطريق المعتاد، قطع كوستاكي وجريجوريسكا المسافة في خط مستقيم ، غير عابئين بالعقبات التي لم يعد لها وجود ، اذ استوت الارض تحت اقدامهما ، وجفت السيول ، ومالت الاشجار ، وتباعدت الصخور. وحدثت معي نفس المعجزة ، وفضلا على ذلك خيل الى ان السماء كلها احتجبت بستار أسود ، والقمر والنجوم اختفت ؛ ولم أعد أبصر في دياجير الليل سوى اللهب الذي يشع من مصاص الدماء .

ووصلنا بهذه الصورة الى هانجو ، واجتزنا سياج الشجيرات التي كانت تحيط بالجبانة ، وما كدنا ندخلها حتى لمحت في الظلمة قبر كوستاكي بجوار قبر ابيه . لم أكن أعرف مكانه ، ولكني مع ذلك تعرفت عليه . وفي تلك الليلة عرفت كل شيء

ووقف جريجوريسكا على حافة القبر المفتوح وقال :

ـ كوستاكي ، لم ينته كل شيء بالنسبة اليك . ان صوتا من السماء يبشرني بأنك سوف تنال الغفران اذا استغفرت : أتعدني بالعودة الى قبرك ، والا تخرج منه ابدا ؟ اتعدني بأن تتعبد الى الله بقدر ما تعبدت الى الشيطان ؟

فأجاب كوستاكي : لا !

ـ الا تستغفر ؟

ـ لا !

ـ للمرة الأخيرة يا كوستاكي ؟

ـ لا !

ـ حسن ! استجر بابليس ، وساستجير أنا بالله ، وسنرى فى هذه المرة أيضا ، لمن تكون الغلبة .

وارتفعت صيحتان فى وقت واحد ، وتقاطع السيفان ، وسطع من احتكاكهما الشرر ، واستمرت المعركة دقيقة واحدة خلتها قرنا من الزمان . وسقط كوستاكى ورايت السيف المقدس الرهيب يرتفع ثم يغوص فى بدنه ، ويسمر الجسد فى الارض التى قلبت تربتها حديثا ، وارتفعت فى الجو صيحة هائلة لا تمت الى طبيعة البشر بصلة .

واندفعت بسرعة .

كان جريجوريسكا واقفا ولكنه كان يترنح ، فأسرعت اليه واسندته الي ذراعى .

وسالته بلهفة : هل انت جريح ؟

ـ لا ، ولكن فى مثل هذه المبارزة ، ياعزيزتى هدفيج ، ليس الجرح هو الذى يقتل ، ولكن المعركة نفسها هى القاتلة . لقد صارعت الموت ، فأصبحت من أتباعه .

فصحت : يا صديقى ، يا صديقى ، ابتعد ، ابتعد من هنا ، فلعل الحياة تعود اليك .

فقال : كلا ، هذا هو قبرى ياهدفيج . ولكن علينا الا نضيع وقتنا .. خذى قليلا من هذه التربة المبللة بدمه وضعيها على الموضع الذى عضك فيه ، فهذى هى الوسيلة الوحيدة التى تقيك فى المستقبل من غرامه البشع .

وامتثلت لطلبه وانا ارتجف ، وانحنيت لألتقط التراب المبلل بالدم ؛ فرايت الجثة مسمرة فى الارض ، وقد اخترق السيف المقدس قلبها ، وسال من الجرح دم اسود غزير ، وكان الميت قد قضى منذ لحظة فقط ، وعجنت قليلا من التراب مع الدم ، ووضعت المعجون ، أو التميمة الرهيبة على جرحى .

فقال جريجوريسكا بصوت أكثر ضعفا : والآن ، يا معبودتى هدفيج ، اصغى جيدا الي تعليماتى الاخيرة . ارحلى عن هذا البلد فى أقرب وقت مستطاع . ان فى البعد وحده خلاصك . لقد تلقى الأب بازيل اليوم وصيتى الاخيرة ، وسوف يحققها . هدفيج !

انطني قبلة ، الوحيدة والاخيرة ياهدفيج ! انني اموت... وما ان نطق جريجوريسكا بهذه الكلمات حتى سقط بجوار اخيه .

كان من المحتمل فى اى ظرف آخر ، وسط هذه الجبانة ، وبجوار هذا القبر الفاخر ، ومع هاتين الجثتين الراقدتين احداهما بجانب الاخرى ، أن اصاب بالجنون ، ولكن الله ، كما قلت منحني قوة تواجه الأحداث التى لم أشهدها فحسب ، بل مثلت فيها أيضا .

وفى اللحظة التى بدأت فيها اتلفت حولي ، باحثة عن اية نجدة ، رأيت باب الدير ينفتح ويخرج منه الرهبان وعلى رأسهم الأب بازيل ، وجعلوا يتقدمون ، مثنى مثنى ، حاملين المشاعل ، يترنمون باناشيد الموتى .

ووصل الأب بازيل من فوره الى الدير ، وكان قد تكهن بما سوف يحدث ، فتوجه الى الجبانة ومعه جماعة الدير كلهم . ووجدني على قيد الحياة بجوار اثنين من الموتى ، أما وجه جريجوريسكا فكان هادئا ، تعلوه شبه ابتسامة .

ودفن جريجوريسكا كما أوصى بالقرب من أخيه : فكان المسيحى التقى يحمى الشرير الملعون . ولما علمت سميراند بهذه الفجيعة الجديدة ، وبالدور الذى لعبته فيها ، طلبت ان ترانى ، فأتت الى دير هانجو ، وسمعت عن لسانى كل ما حدث فى تلك الليلة الرهيبة ، ورويت لها كل دقائق تلك القصة العجيبة ، ولكنها اصغت الي كما اصغي الي جريجوريسكا دون أن يبدو عليها اى دهش أو فزع ، وبعد لحظة سكون قالت لى :

ــ هدفيج ، مهما كانت غرابة القصة التى رويتها لى الآن ، فانك لم تقولى مع ذلك الا الحقيقة الخالصة . ان سلالة برانكوفان ملعونة ، ملعونة حتى الجيل الثالث والرابع ، لأن احد افرادها قتل قسيسا . غير ان هذه اللعنة قد بلغت نهايتها ، لأنك مازلت عذراء ، رغم انك متزوجة ، أما انا ، فانى خاتمة السلالة . واذا كان ابنى قد أوصى لك بالمليون ، فخذيه ، وسوف ترثين ثروتى ، باستثناء ما وصيت به للمنشآت الدينية . والآن ، اتبعى نصيحة زوجك . عودى بأقصى سرعة الى البلاد التى لايأذن الله فيها

بمثل هـــــذه المعجزات الرهيبة . انني لست في حاجة الى من يشاركني البكاء على ولدي . الوداع ، ولا تتقصى اخبـاري بعد الآن . ان مصيري من شاني ومن شان ربي .

ولما قبلتني كعادتها في جبيني ، تركتني وعادت لتحبس نفسها في قصر براتكوفان . وانقضت ثمانية أيام ، سافرت بعدها الى فرنسا . وكما تمنى جريجوريسكا ، لم يعد الشبح يزورني ليلا. وتحسنت صحتي ، ولم يبق لي اثر من هذا الحادث سوى هذا الشحوب الشبيه بشحوب الموتى ، الذي يلازم ، حتى القبـر ، كل مخلوق قبله واحد من مصاصي الدماء .



وسكتت السيدة ، ودقت الساعة مؤذنة بمنتصف الليل، واقول دون تردد ان أشجع من فينا قد ارتجف عند سماع جرس الساعة وحان وقت الانصراف ، واستأذنا من السيد ليدرو .

وبعد عام توفي هذا السـيد الجليل .

وهذي اول فرصة تتاح لي ، منذ وفاة هـذا السيد الجليل ، لاقوم بواجب التقدير لهذا المواطن الطيب ، والعـالم المتواضـع ، والانسـان الامين ، وهاندا ابادر الى القيام بهذا الواجب .

تمت

هذه الرواية

صاحب هذه الاشباح ، الكاتب القصصي العالمي الفرنسي الكسندر دوماس الأب ، كتب القصة التاريخية فابدع كتابتها ، ومزج فيها الواقع التاريخي بخيال الاديب القصصي المبدع ، في أسلوب سلس ، وروح خفيفة جذابة ، فكان له انتاج ادبي في هذا المضمار ، قل ان يضارعه في الضخامة انتاج .

والكتابة في الاشباح مطلب عسير ولكن مؤلف هذه الاشباح يعطف فدعانا الى رحلة صيد ، في بعض ضواحي باريس . وشهد في القرية التي زارها جريمة بشعة ، ضحيتها امرأة من الريفيات . ويجتمع المؤلف ليلا مع جمع من الاعيان في منزل العمدة ليسجلوا شهاداتهم للحادث ، وبعد تناول طعام العشاء ، استقر المدعوون في مقاعدهم في دار العمدة ، وبداوا يتحدثون . ولما كانت المناسبة رهيبة ، وجثة القتيلة ماثلة للأنظار ، فقد توالت الاقاصيص المخيفة من أفواه الجالسين ، كل يحكي غرائب ما سمعه من حكايات الموت والقتل والاعدام والارواح والاشباح ، وبدأت القصص بفظائع الثورة الفرنسية ، وافعال « المقصلة » الرهيبة وهي تضرب بسكينها الرؤوس فتفصلها عن الاجساد .. ثم تتوالى بعد ذلك حكايات الاشباح وتطير بنا الاقاصيص الى جبال اوروبا وغاباتها وقصورها فنشهد صراع الامراء والنبلاء ، وقطاع الطرق ، ويسقط منهم من يسقط تحت ضربات السيوف وتنطلق ارواح الصرعى ترفرف على رؤوس الاحياء ، تطلب الثأر المحتوم ، ونحن في هذه الجولة الرهيبة مع الرواة مشدودون الى الاحداث ، نستمتع بلونها وجاذبيتها ، ولكننا نتلمس فكرة المؤلف التي تشيع فيها كلها .. فهو يندد بظلم الانسان وقوته ، ويقابل في كل مناسبة بين روح الخير وروح الشر ، ولا بد في كل قصة ان ينتصر الخير على الشر ، ويزهقه ، ويدفنه في دنيا الاشباح .


الكسندر دوماس